
Bibliotheca Alexandrina
00118526



تأليف

دكتور إبراهيم أحمد العدوي



تأليف

دكتور ابراهيم احمد العدوى

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة لجنة البيان العربي
٦/٢ الجامع الإسماعيلي بالمالية
ت ٢٧٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه سيرة عالم أنكر ذاته ليجد وطنه ، فخلده الوطن . سيرة المؤرخ ابن عبد الحكم الذى قضى حياته كلها يدوّن تاريخ مصر طوال الثلاثة القرون الأولى للهجرة ، ويكشف عن الدور الجليل الذى قامت به تلك البلاد فى سبيل نشر العروبة والاسلام فى شتى الجهات المجاورة لها .

ونال ابن عبد الحكم بهذا الطريق الذى اختطه لنفسه قصب السبق على سائر أفراد أسرته ، الذين كانت أسماؤهم أيضا ملء السمع والعين فى المجتمع العربى فى مصر . فبينما أسهم والده وإخوته فى مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية فى وطنهم ، وتعرضوا لما تعرض له المشتغلون بالحياة العامة من ارتفاع وانخفاض ، جلس ابن عبد الحكم من دونهم ينظر من نافذة التاريخ العربى لمصر ، ويرقب الآفاق الواسعة التى أحاطت بوطنه ويسجل ما انبعث منها من تيارات دافقة ، أسهمت فى نمو الروح العربية فى مصر وبلاد المغرب ودعمت أوتادها هناك .

ومن ثم انطوت سيرة ابن عبد الحكم فى كتابه الوحيد « فتوح مصر والمغرب » ، الذى صار مرآة صافية تعكس شخصية هذا العالم وتوضح مذهبه فى الحياة وعقيدته فى العمل. أما مذهبه فهو أن الإيمان

الصادق خير رائد للانسان وهو يشق طريقه فى الحياة ، وأما عقيدته فهى أن العمل الصامت أشد دويا من التزاحم فى مناكب الحياة، وأبقى أثراً من الجرى وراء زخرف الدنيا وزينتها . ولذا بقى اسم هذا المؤرخ حياً تتناقله الشفاه جيلا بعد جيل ،حتى العصر الحاضر، على حين طوى الزمان أسماء إخوته ووالده ، بعد أن انتهى دورهم على مسرح الحياة . وظل لقب هذا المؤرخ وهو « ابن عبد الحكم » يحفظ لأسرته إسمها ، كأنما هو الابن الوحيد لها الحافظ لمكانتها وتراثها .

وتصور سيرة ابن عبد الحكم حياته . أولا — أيام أن كان صبياً يرتع فى حمى أسرته ، وحين شب وترعرع على نحو ما تربى عليه أبناء جيله فى مصر ، من ثقافة عربية إسلامية . وثانيا — حين جعل ابن عبد الحكم سبيله فى الحياة العمل فى ميدان التاريخ ، وأقبل فى نشاط فائق وحماسة رائعة على المساهمة فى الحركة العلمية الكبرى التى سادت بلاد الدولة الاسلامية فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . أما الفصول الأخيرة من هذه السيرة فتعرض نماذج تطبيقية للطريقة التى سلكها هذا المؤرخ فى معالجة تاريخ وطنه ، وتبين مقدار ما بذله من جهد فى جمع المادة العلمية ، ثم عرضها وتبويبها ، بما يحقق أهدافه فى الكشف عن مراحل نمو القومية العربية وانتشار الاسلام فى بلاد غرب البحر المتوسط . وأخيرا تنتهى سيرة ابن عبد الحكم بفصل يوضح الأثر الخالد الذى تركه هذا الأستاذ الكبير فى أجيال المؤرخين

الذين حملوا من بعده لواء التدوين التاريخى مدى سبعة قرون متتالية، وهو فضل لم يشرف به غير هذا العالم المؤرخ .

ومن يمن الطالع أن تصدر سيرة ابن عبد الحكم فى هذه الأيام الحافلة بانطلاق القومية العربية ، والعمل على إعلاء رايتها . إذ يجد أبناء الأمة العربية فى سيرة ابن عبد الحكم نماذج جديرة بأن تحتذى من أجل إنكار الذات ، والعمل فى صمت فى سبيل إعادة مجد هذه الأمة التليد ، وتجديد رسالتها السامية فى ميدان الحضارة العالمية .

ابراهيم أحمد العدوى

الدقى فى { غرة رمضان سنة ١٣٨٢ هـ
٢٦ يناير سنة ١٩٦٣ م }

الفصل الأول

أرض الوطن

مصر فى أحضان العروبة

طلائع الجيل العربى :

الظاهرة الكبرى فى تاريخ مصر هو سرعة ازدهار الحياة العربية فيها ، وتفانى المصريين فى خدمة الحضارة العربية ونشر رسالتها . فإذا كانت مصر تعتبر درة العالم قبل الإسلام ، فإنها أصبحت أغلى درة فى الوطن العربى بعد الإسلام . ويرجع السبب فى ذلك إلى سرعة امتزاج العرب الوافدين إلى مصر ، بعد الفتح الإسلامى ، بسكان البلاد ، وظهور جيل عربى جديد صار الحارس الأمين على المجتمع العربى الناشىء ، وتنمية تقاليده وتدعيم أوتاده .

وبدأت طلائع الجيل العربى الجديد فى مصر عقب الفتح الإسلامى لها بوقت قصير ، إذ وفدت قبائل مختلفة مع عمرو بن العاص ، واشتركت فى فتح مصر ، ثم أخذت تستقر فى البلاد وتتخذها وطنا لها . ونزلت هذه القبائل أولا فى الفسطاط ، التى

وظل سيل القبائل العربية يتدفق على مصر كذلك فى العصر العباسى الأول ، وكثر تصاهرها مع المصريين . ومن ذلك أنه قدم إلى مصر بعد سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٣ م ، أى فى خلافة المتوكل على الله العباسى ، جماعة من أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن سعد بن عدنان ، أى من عرب الشمال . وهذه الظاهره بدورها لها أهميتها أيضاً ، لأن معظم العرب الذين وفدوا إلى مصر منذ أيام الفتح كانوا من عرب الجنوب . ثم أن أولاد الكنز انتشروا فى سائر أنحاء البلاد ونزلت طائفة منهم بأعالى الصعيد . وكان لهذه الطائفة الأخيرة أثر كبير فى استقرار الأمور فى مصر العليا . ذلك أن القرى الشرقية بالصعيد تعرضت لإغارات جماعات تعرف باسم البجة ، سكنت المنطقة الممتدة من صحراء قوص إلى أول بلاد الحبشة . واضطرت السلطات الرسمية فى مصر إلى مصالحة البجة لتأمن شر إغاراتهم على القرى ، ولكن بمجىء أولاد الكنز إلى الصعيد وقفت إغارات البجة ، كما بدأت تنتعش إقتصاديات البلاد ، لأن أرض البجة المجاورة للصعيد غنية بمعدن التبر ، وبدأت القبائل العربية فى استخراجه .

وانتشرت القبائل العربية فى شتى أرجاء البلاد المصرية ، واختصت كل ناحية بقبيلة أو أكثر . فسكن حول أسيوط عرب من جهينة ، وفى الفيوم نزل بنو كلاب ، ومن منية غمر إلى زفيتا سكنت جماعات من جذام ، واشتغل أكثرهم مشايخ للبلاد وخفراء ، وامتلكوا

المزارع . وفى نفس الوقت انتقلت طوائف من فزارة إلى الغربية وقليوب ، كما سكن الدقهلية عرب ينتسبون إلى قريش ، واستقر حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون إلى هوازن ، وصار لهم شأن عظيم فى تلك الأرجاء . واختصت مدن مصر بعدد كبير كذلك من العرب الذين رابطوا فيها للدفاع عنها ، وحماية الإسلام فى البلاد . ومن أمثلة تلك المدن التى اعتبرها العرب من الثغور - أى الواجب حراستها ، والجهاد فى سبيلها - البرلس ورشيد والاسكندرية والبحيرة وإخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والعريش وأسوان وقوص والواحات . وبعبارة أخرى صار العرب يعيشون تماما بين المصريين سواء فى المدن الكبرى أو فى صميم الريف ، وأخذت تقوى بينهم أواصر المودة والألفة .

ووفد مع القبائل العربية كثير من مواليها ، الذين أسهموا بدورهم فى الاشتغال بشتى النواحى الاقتصادية فى البلاد . وبمرور الوقت لم يعد هناك أية تفرقة بين العرب ومواليهم فى أرض الوطن الجديد ، وأخذت حدة العصبية القبلية تضعف ، وبدأت تتلاشى . وساعد هذا التطور الهام على سرعة الامتزاج بين العرب والمصريين ، حتى أنهم وقفوا صفا واحدا أمام عنت بعض الولاة الذين جنحوا أحياناً إلى الاشتطاط فى جمع الضرائب ، أو التمادى فى فرض أخرى جائرة . فأحس الجميع ، من العرب والمصريين أنهم أبناء وطن واحد ، وأن الروابط تجمع بينهم فى السراء والضراء .

ولم تلبث الأحداث أن زادت من انصهار العرب والمصريين ، ليس نتيجة التزاوج فحسب ، ولكن بسبب التطورات الجديدة التى خضعت لها الدولة الاسلامية على عهد الخليفة المعتصم العباسى . ذلك أن العرب فقدوا على عهد هذا الخليفة مركزهم فى إدارة الدولة بسبب اعتماده على الأتراك فى الحكم والإدارة . إذ ضاق المعتصم ذرعا بالنزاع والتنافس بين العرب والفرس على السلطان ، وظنّ واهماً ، أن تخليه عن كل من العرب والفرس ، واستبدالهم بالعنصر التركى فيه ضمان لاستقرار الأمور لدولته . وكان العرب لهم ديوان تسجل فيه أسماؤهم من أجل الحصول على العطاء الذى قررته الدولة لهم . وترجع هذه الظاهرة إلى أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وظلت تعتبر عنوانا على تمتع العرب بمكانة ممتازة فى إدارة الدولة . ولذا عندما جاء الخليفة المعتصم إلى عرش الخلافة ، وأخذ يفضل الأتراك على العرب والفرس فى مناصب الدولة رأى أن يحرم العرب نهائيا من العطاء .

وكتب الخليفة المعتصم إلى والى مصر ، وهو كيدر نصر بن عبد الله (٢١٦ هـ / ٨٣١ م) بإسقاط من فى الديوان من العرب ، وعدم صرف العطاء لهم . وكان الاختلاط قد عظم بين العرب والمصريين إذ ذاك ، لأن قرار المعتصم بمنع العرب من أخذ العطاء لم يكن له رد فعل عنيف بين أصحابه . فعندما قطع كيدر العطاء عن العرب ثار «يحيى الجروى» ، ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة شخص . والنتيجة الهامة

التى ترتبت على قرار المعتصم هو ازدياد الامتزاج والمصاهرة والاختلاط بين العرب والمصريين ، واشتركوا جميعاً فى أعمال الزراعة والتجارة والصناعة ، والتعاون على النهوض بمستوى بلادهم الاقتصادى. وبعبارة أخرى أفاد قرار المعتصم من حيث لا يدرى ، فى تدعيم الجيل العربى الناشىء فى مصر ، وتقوية الطابع العربى فى تلك البلاد .

ومن ثم لم يكد ينتهى القرن الأول والقرن الثانى للهجرة حتى ظهرت طلائع الجيل العربى فى مصر قوية وواضحة . ذلك أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى هذين القرنين من الزمان ، حيث أوضحت معظم شواهد القبور التى اكتشفت منذ وقت قريب فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأوَّلين للهجرة . ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى ، أى بعد قرار الخليفة المعتصم بإسقاط العرب من الديوان ، نجد أن اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب إليه المتوفى ، وصار يكتب فلان المصرى . وفى نفس الوقت أقبل المصريون على تعلم اللغة العربية ، حتى ظهرت آيات التجاوب الطيب بين الجيل الجديد فى مصر ، ممثلة فى اعتزاز أفراده ـ دون نظر لأصلهم الأول ـ بوطنهم المصرى، وتعاونوا جميعا على تدعيم أواصر القربى بينه وبين الوطن العربى الكبير .

انتشار اللغة العربية :

صاحب بناء الجيل العربى فى مصر ظاهرة أخرى فريدة اختصت

بها مصر من دون غيرها من البلاد التى شاركتها فى الانضمام إلى دائرة العروبة . فالشعب المصرى وقف طوال تاريخه العريق وقفة عناد لكل لغة أجنبية يحملها إليه أى دخيل ، من أمثال اليونان والرومان . فلم تتغلب اليونانية أو الرومانية على لغة المصريين برغم سيادة اليونان والرومان على البلاد المصرية ، حتى اضطر أحد المعاصرين إلى القول: «إذا أراد يونانى أن يعلم المصريين شيئا من القانون فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم ، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه » . وفضلا عن ذلك أبطل المصريون اللغه اليونانية فى الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية ، على نحو ما حدث فى القرن السادس الميلادى ، أى القرن السابق مباشرة للفتح العربى لمصر .

وباستقرار الفتح العربى فى مصر ، وانتشار القبائل العربية فى سائر أرجاء البلاد المصرية ، بدأ المصريون يقبلون على تعلم اللغة العربية عن طواعية ، ودون إكراه ، مما يدل على شدة التجاوب بين بين العرب والمصريين ، وأن عهدا جديداً أخذ يشرق على الديار المصرية . وفى نفس الوقت ساعد تعريب الدواوين على سرعة تعلم المصريين للغة العربية، وكان ذلك منذ عهد مبكر، فى سنة ٨٧ هـ/٧٠٦م، على عهد ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان على مصر . وأجاد بعض المصريين فى هذه المرحلة المبكرة اللغة العربية ، حتى أن القس بنيامين شرح الإنجيل بالعربية للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ابن

والى مصر . ثم أن المصريين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى تعلموا اللغة العربية حتى يستطيعوا قراءة القرآن الكريم ، وفهم دروس الفقه .

واستطاع العرب الذين أقاموا بمصر نشر لغتهم كذلك بين المصريين لمعرفتهم اللغة القبطية والتخاطب بها مع جيرانهم من المصريين . ومن ذلك أن أحد قضاة مصر العرب ، وهو خير بن نعيم « كان يسمع كلام القبط ويخاطبهم بها ، وكذلك الشهود منهم ، ويحكم بشهادتهم » . وكان كثير من العرب يحضرون مجالس القبط ، ويفهمون الأحاديث التى تدور بينهم بالقبطية ، كما تحادثوا معهم أحيانا بلغتهم .

وصارت مصر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى ، تشارك مشاركة واضحة فى الحياة الأدبية العربية ، وظهر فيها نفر من أهل البلاد ، أجادوا اللغة العربية إجادة تامة ، وصاروا يقفون فيها على قدم المساواة مع أعرق الشخصيات العربية . فيروى أن الإمام الشافعى وهو الإمام فى العربية وعلوم الدين ، التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج الغول » وكان هذا الرجل حجة فى اللغة العربية ، وكان الأمام الشافعى يأنس له كثيرا ، ويقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر : « ياربيع أدع لى سرج الغول » ، فيأتى به ، ويناظره الشافعى ، ويعجب بغزارة علمه ، ولا يقول أحد شيئا من الشعر إلا عرضه عليه ، وعندما ينصرف « سرج الغول » يقول الشافعى : « ياربيع ، نحتاج أن نستأنف طلب العلم » .

ونبغ فى مصر فى أواخر القرن الثانى ومطالع القرن الثالث الهجرى علماء أفاضل ، بعضهم ممن كان أصلا من المصريين الذين اعتنقوا الإسلام ، والبعض من سلالة القبائل العربية التى استوطنت فى البلاد . ومن أمثال هؤلاء أحمد بن يحى التجيبى ، والحافظ النحوى ، الذى كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين . وكانت هذه الظاهرة الخاصة بظهور أسر مصرية فى ميدان الثقافة العربية من أهم الأحداث التى دفعت بالحضارة العربية خطوات واسعة إلى الأمام ، وأثبتت أن مصر تصعد سريعا فى مدارج الحياة العربية الجديدة ، وتضطلع بمسئولياتها فى تنمية التراث العربى وتوسيع أهدافه ، والعمل على تثبيت أوتاده ودعائمه .

المدارس الدينية :

صاحب انتشار اللغة العربية فى مصر ، وساعد على أصالتها فى البلاد قيام حركة دينية واسعة النطاق ، عقب الفتح الإسلامى مباشرة . وتركزت هذه الحركة فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، حيث اتخذه الصحابة الذين شهدوا فتح مصر مقراً لهم ، ولتدريسهم . وترتب على ذلك ظهور مدرسة دينية بمصر ، نشأت ثم نمت بالتدريج ، وصار لها أتباع عديدون ، أسهموا فى دعم الثقافة الدينية ، التى امتلأت بها سائر أرجاء الدولة الإسلامية فى صدر حياتها ، وجعلوا من وطنهم فى مصر مركزاً هاما من مراكز هذه الحركة الدينية الزاهرة . فتخصص

نفر من علماء مصر فى دراسة القرآن الكريم ، وكذلك الحديث ، واستنباط الأحكام منهما ، حتى صارت الديار المصرية مقصد الطلاب من الأقطار المجاورة لها .

ويرجع السبب فى هذا النشاط المبكر لمصر فى ميدان الدراسات الدينية إلى أن الخلفاء اختاروا لها خيرة العلماء العرب ، وأوسعهم ثقافة وفهما لشئون الدين . فمثلا نرى الخليفة عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حبان بن أبى جبلة ليفقههم ، وليكون مرجعا لهم فى شئون دينهم . وسار على هذا النهج من جاء بعده من الخلفاء على اختلاف أزمانهم ، حتى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أوفد إلى مصر نافعا ، مولى بن عمر ، وهو فقيه أهل المدينة ، ليفقه أبناء مصر بشئون دينهم ، وليعلمهم السنن . وأقام نافع بمصر مدة طويله ، وترك فيها كثيرا من التلاميذ الذين حملوا من بعده لواء الدراسات الدينية فى البلاد .

وخطت الدراسات الدينية فى مصر خطوات واسعة بظهور المذاهب الأربعة ، التى قوى شأنها فى العصر العباسى . وأقدم هذه المذاهب الأربعة هو مذهب الإمام أبى حنيفة ، الذى ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ ، ويعد أبو حنيفة إمام أهل الرأى والقياس . وثانى أئمة المذاهب الأربعة الإمام مالك بن أنس ، الذى ولد بالمدينة المنورة سنة ٩٣ هـ أو سنة ٩٥ هـ ، وتوفى بها سنة ١٧٩ هـ . ويمتاز مذهب مالك بالاعتماد على الحديث ، ويقال لأتباعه أهل الحديث . وثالث

أولئك الأئمة هو الإمام الشافعى ، ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ ، وتوفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ . ويتصف مذهب الشافعى بأنه جمع بين مذهبى الرأى والحديث . ورابع هؤلاء الأئمة هو الإمام أحمد بن حنبل الذى ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ .

وعلى الرغم من أن مذهب الإمام أبى حنيفة هو أقدم المذاهب الأربعة ، فإن مذهب الإمام مالك هو الذى دخل مصر أولا ، وانتشر بها ، كما لقى بها قبولا عظيما ، بما يدل على قوة الوازع الدينى لدى أهل البلاد . وكثر فقهاء المالكية بمصر ، واشتهروا بسعة علمهم ، أمثال عبد الله بن وهب ، الذى صحب الإمام مالك نفسه عشرين سنة ، وكان مالك إذا كتب إليه فى مسائل خاصة أو عامة ، يراسله بقوله : إلى عبد الله بن وهب المفتى ، ولم يكن يفعل ذلك مع غيره .

وظل المصريون يتبعون مذهب مالك حتى قدم الإمام الشافعى إلى مصر ، ونشر مذهبه الجديد بها . وعندئذ تبع كثير من المصريين مذهب الشافعى ، ونبغ منهم علماء أفاضل ، من أشهرهم يوسف بن يحيى البويطى ، نسبة إلى بويط ، وهى قرية من قرى صعيد مصر . وخلقت مدرسة الشافعى جوا جديدا من العلم فى مصر ، إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى ، وأن تناظرها . ومن ثم بدأت أذهان المصريين تدرك قيمة المناظرات العلمية ، كما أخذ فريق منهم عن الشافعى طريقته فى الكتابة العلمية . إذ كان يأتى بالآية أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط

منه ما ينتهى إليه رأيه ، كما كان يختار الألفاظ الجيدة التى تلائم المعنى . وبذلك ظهرت روح الكتابة عند المؤلفين المصريين، ونقل عنهم جيرانهم هذا النمط من الكتابة العلمية ..

وبذلك لم يكد يقترب القرن الثانى الهجرى من نهايته حتى ظهر فى مصر علماء أفاضل صاروا طليعة الجيل العربى فى مصر ، وحملت مشاعل الثقافة الإسلامية إلى سائر أرجاء العالم العربى المجاور لبلادهم . ومن ثمار هذا الجيل الجديد فى مصر « ورش » المقرىء ، واسمه عثمان بن سعيد المصرى الذى انحدر من أصل قبطى . وأخذ هذا العالم المصرى القراءة عن نافع ، وهو الذى لقبه بورش لشدة بياضه ، ويقال لأن الورش شىء يصنع من اللبن، وقيل ولقبه ورشان، وهو طائر معروف. وقد انتهت إلى هذا العالم المصرى رياسة القراءة فى مصر ، كما اشتهر بإجادته للغة العربية . وتوفى ورشان سنة ١٩٧هـ/٨١٣م ، تاركاً وراءه تلاميذ نجباء ، منهم يعقوب الأزرق ، الذى أتقن الأداء فى الإقراء، على نحو ما تعلمه من أستاذه .

ولم يقتصر نشاط العلماء المصريين على وطنهم ، فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخها فى ظل العروبة ، وإنما جعلوا من بلدهم مركزاً اجتذب إليه الطلاب من الأقطار المجاورة ، وهى إفريقية (تونس الحالية) ، والمغرب ، والأندلس كذلك . فأثرت مصر على المغرب والأندلس فى المذاهب وفى العلوم الدينية أيضا . فمن علماء إفريقية

الذين أخذوا عن المصريين ، البهلول بن راشد ، الذى توفى سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م . ومن علماء الأندلس الذين وفدوا إلى مصر إذ ذاك عيسى بن دينار ، الذى تلقى العلم على مشاهير فقهائها . وحين عاد عيسى إلى الأندلس تولى رياسة الفتيا بقرطبة ، ولم يتقدم عليه أحد ، لأنه تعلم على خيرة علماء مصر . وتوفى عيسى فى طليطلة سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م .

وهكذا أصبحت مصر فى أواخر القرن الثانى ومطالع القرن الثالث الهجرى مركزا هاما من مراكز الثقافة العربية والإسلامية كذلك . ولم تلبث مصر أن حظيت بعالم جليل فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخها فى ظل العروبة ، صار خير نموذج للتطور الجديد الذى شاهدته البلاد ، وهو المؤرخ « ابن عبد الحكم » . إذ فاق هذا العالم العربى أقرانه بتسجيل أحداث وطنه فى مصر ، وما جاوره من بلاد إفريقية والأندلس كذلك ، موضحا الأسس الراسخة الأوتاد التى يستند إليها صرح العروبة الشامخ فى هــذا الشطر الهام من أرض الوطن العربى .

الفصل الثاني

ابن عبد الحكم

في مدرسة الأسرة

بيت العلم :

نشأ المؤرخ ابن عبد الحكم فى أسرة كان لها أثر كبير فى الحياة العقلية والاجتماعية بمصر فى القرن الثانى والقرن الثالث الهجرى . فاشتهر بيت ابن عبد الحكم بأنه بيت علم وفقه ودين ، وهو الأمر الذى أسهم بنصيب عظيم فى بناء شخصية هذا المؤرخ المصرى ، وأتاح له أسبابا لم تتوافر لغيره فى سبيل خدمة وطنه ، وتسجيل أهم مرحلة من مراحل تاريخه المجيد فى ميدان العروبة والثقافة الإسلامية كذلك .

تنتسب أسرة ابن عبد الحكم إلى بلدة « الحقل » بالقرب من أيلة (العقبة) ، كما تستمد أصولها من قبيلة قريش . واختص أبناء هذه الأسرة خالفا عن سالف بالاهتمام بالدراسات الدينية وعلو كعبهم فيها . فأول شخص ذاع أسمه من أسرة ابن عبد الحكم ، وهو أبو عثمان عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع ، كان على صلة وثيقة بالإمام مالك وبحوثه . وتوفى هذا الجد الأكبر سنة ١٧١ هـ/ ٧٨٧م ، تاركا

لأبنائه من بعده سياسة واضحة المعالم للسير فى سبيل خدمة الإسلام وحضارته. فحمل لواء العلم بعد جد تلك الأسرة، والد المؤرخ ابن عبد الحكم، وهو عبدالله بن عبد الحكم بن أعين، الذى ولد سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م.

واشتهر والد المؤرخ ابن عبد الحكم بالصلاح والتقوى والورع، وكذلك بالتفقه فى مذهب الإمام مالك. ولما كان هذا المذهب واسع الانتشار فى مصر فقد التف حول عبدالله بن عبد الحكم كثير من علماء البلاد، وغيرهم من الوافدين إليها من المغرب والأندلس، ودرسوا عليه أصول هذا المذهب. ووضع هذا العالم عدة كتب، أظهرت علو شأنه فى الفقه، ومنها: «المختصر الكبير» جمع فيه ثمان عشرة ألف مسألة فقهية، «والمختصر الأوسط» وفيه أربعة آلاف مسألة «والمختصر الصغير» وفيه ألف ومائتا مسألة، وكتب أخرى فى القضاء والمناسك، وكتاب فى سيرة عمر بن عبد العزيز. وصارت هذه الكتب مصدراً هاماً استمد منها المؤرخ ابن عبدالحكم الشىء الكثير، كما اتخذ من والده حجة وراوية لأخباره كذلك.

وتولى عبدالله بن عبد الحكم عدة وظائف هامة، وأتاحت لابنه المؤرخ الكبير، سبيلا فريدا لدراسة أحوال مصر عن خبرة واسعة ودقة شاملة. فكان القضاة يعهدون إلى عبدالله بمهمة «صاحب المسائل» وهو الشخص الذى يتحرى عن الشهود ويسأل عن أماناتهم وعدالتهم.

وعلا شأن هذه المهمة لأن القضاة حرصوا على أن يكون الشهود الذين يتقدمون للشهادة أمامهم فى المحاكم من أصحاب السيرة النقية الطاهرة ، نظرا للخطورة التى تترتب على أقوالهم . وأحدث عبدالله أثناء توليه هذه المهمة الجليلة ، تقليداً جديدا كشف عن نزاهته ودقته فى أداء عمله دون أن يخشى فى الله لومة لائم . ذلك أن العادة جرت إلى عهدهم على أن يكون الشهود من طبقة خاصة ممن لهم جاه ، فلما تولى ابن عبد الحكم على « مسائل القاضى » أدخل بين الشهود بعض الناس ممن لا جاه لهم ولا قدر ، ولكن فى استطاعتهم خدمة العدالة .

ولم يخش عبدالله بن عبد الحكم الانتقاد الذى وجهه إليه أحد كبار رجال البلاد ، لأنه أدخل فى العدالة ، « فلان الحائك وفلان البيّاع » . فقال أحد أولئك الحانقين : « يابن عبدالحكم ، قد كان هذا الأمر (يعنى اختيار الشهود) مستورا فهتكته ، وأدخلت فى الشهادة من ليس أهلا لها » . فقال له ابن عبد الحكم : « أن هذا الأمر دين ، وإنما فعلت ما يجب على » .

وكان بيت عبدالله عبدبن الحكم مقصد كبار العلماء والفقهاء الوافدين إلى مصر ، حيث عرف بالثراء والكرم كذلك . وبلغ من ثرائه أنه تلقى الإمام الشافعى حين جاء إلى مصر سنة ١٩٩ ﻫ ، وأنزله فى داره ، وأعطاه من ماله الخاص ألف دينار . واستطاع عبدالله بنفوذه أيضا أن يجمع للشافعى ألف دينار أخرى من بعض المصريين ، ومن أحد

مشاهير التجار إذ ذاك ، وهو ابن عمه أسامه ألفا ثالثة . وترك هذا الكرم أطيب الأثر فى نفس الإمام الشافعى ، وحبب إليه البقاء فى مصر بعد أن كاد يغادرها فى أول الأمر .

ولم يلبث عبدالله بن عبد الحكم أن وصل إلى أرقى منصب دينى فى البلاد حين توفى أشهب بن عبدالعزيز رئيس المالكية فى مصر ، سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م . إذ آلت رئاسة تلك الطائفة الكبرى إلى عبدالله ابن عبد الحكم ، نظرا لسعة علمه ، ومكانته العالية بين فقهاء المالكية. واستطاع هذا العالم المصرى أن يقوى دعائم فقه مالك فى مصر ، وما جاورها من بلاد إفريقية والأندلس كذلك ، ووفد إليه العلماء من تلك الأقطار يتلقون عنه أصول هذا المذهب وتعاليمه . وظل عبدالله فى رئاسة المالكية حتى توفى سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م ، بعد عمر مديد بلغ ستون عاما .

وانعكست آثار هذا النشاط العلمى العظيم الذى ساد حياة عبدالله بن عبد الحكم فى مؤلفات ابنه المؤرخ ابن عبد الحكم . إذ تجلى فى تلك المؤلفات الخبرة الواسعة بأحوال مصر وما جاورها من بلاد ، وذلك عن طريق أوثق المصادر وأدقها . ثم إن صلة المؤرخ ابن عبد الحكم بالحياة الثقافية لم تنقطع بوفاة والده ؛ ذلك أنه كان رابع إخوة ثلاث تابعوا جميعا رسالة والدهم فى النهوض بالدراسات الدينية فى الديار المصرية ، وجعل وطنهم كذلك كعبة يحج إليها طلاب تلك

الدراسات ، والراغبين فى الاستزادة منها . ووجد المؤرخ ابن عبد الحكم بالتالى فى إخوته مصادر أخرى غزيرة ، جعلت لمؤلفاته مكانة فريدة فى ميدان خدمة الدراسات العربية .

وكان أكبر إخوة هذا المؤرخ الجليل ، هو عبد الحكم بن عبد الله ، فقيها أيضا على مذهب مالك كأبيه . ثم إنه اشتهر كذلك بالتقى والورع ، وجودة الخط . أما الأخ الثانى ، وهو سعد بن عبد الله فذاع صيته فى البلاد المصرية وما جاورها من بلاد إفريقية والأندلس ، وصار أستاذا لعدد من فقهاء الأندلس الذين رحلوا إلى مصر فى طلب العلم ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الباجى الاشبيلى ، ومحمد بن عيسى ، ومحمد بن عمر بن لبابة وغيرهم . ومن ثم صار هذا العالم المصرى أحد رواة المؤرخ ابن عبد الحكم فيما كتبه عن فتوح الأندلس ، ومصدرا دقيقا عن أحوال تلك البلاد .

واشتهر الأخ الثالث من إخوة المؤرخ ابن عبد الحكم واسمه محمد بحبه لرواية الحديث ، وملازمته لكبار الأئمة الذين وفدوا على مصر فى حياة والده . ومن ذلك أنه صاحب الإمام الشافعى منذ نزل ضيفا عند والده عبد الله بن عبد الحكم ، واستطاع أن ينتزع إعجاب هذا الإمام الجليل ، الذى قال مرة : « ما يقيمنى بمصر غيره » . واختص الشافعى هذا الأخ الثالث بتكريمه دون سائر أتباعه ، فروى أحد تلاميذ الشافعى ، وهو المزنى : كنا نأتى الشافعى ، نسمع منه ، فنجلس على باب داره ، ويأتى

محمد بن عبد الحكم فيصعد ويطيل المكث ، وربما تغذى مع الشافعى . ثم ينزل الشافعى فيقرأ علينا ، فإذا فرغ من قراءته قرّب إلى محمد دابته فركبها ، وأتبعه الشافعى ببصره ، فإذا غاب شخصه قال الشافعى لمن معه : وددت أن يكون لى ولدا مثله .

وكان أتباع مذهب مالك ينكرون انقطاع محمد بن عبد الله إلى الامام الشافعى، ولاسيما أن الجدل ثار إذ ذاك بين أتباع هذين المذهبين . فقال قوم من أصحاب مذهب مالك لرئيسهم عبد الله . يا أبا محمد ، إن محمدا ينقطع إلى هذا الرجل (أى الإمام الشافعى)، ويتردد إليه ، ويرى الناس أن فى ذلك دلالة على انصراف ابنه عن مذهب مالك . غير أن عبد الله دافع عن ابنه بقوله للناس: إنه صغير، ويحب النظر فى اختلاف أقاويل الناس ، وفى نفس الوقت نصح الأب إبنه بالاستمرار فى مصاحبة الشافعى ليستفيد من أسلوبه العلمى الجديد . وتوثقت العلاقة بين الشافعى ومحمد بن عبد الله حتى ظن الناس أن الشافعى سوف يعهد برياسة أتباعه من بعده لهذا العالم المصرى .

وبعد وفاة الشافعى تولى رياسة مذهبه تلميذه البويطى ، وعندئذ عاد محمد بن عبد الله إلى المذهب المالكى ، وجعل لنفسه حلقة درّس فيها هذا المذهب ، وعلا شأنه فى هذا السبيل ، حتى إن المصريين اختاروه خلفا لأبيه فى رياسة مذهب مالك . وذاعت شهرة محمد بن عبد الله ، حتى وفد إليه بدوره كثير من علماء الأندلس ، وأخذوا عنه مذهب

مالك . وصار هذا الأخ الثالث بدوره ينبوعا هاما استقى منه المؤرخ ابن عبد الحكم الكثير من الأخبار التي دونها عن فتح المسلمين لهذه البلاد الأندلسية .

وهكذا نشأ المؤرخ ابن عبد الحكم في أسرة تبوأت مركز الصدارة في الدراسات الدينية في مصر ، ووجد في أفرادها مايساعده على إرضاء ميوله الدينية والعلمية . فكان ابن عبد الحكم من أهل الحديث ، والراغبين في روايته ؛ ولقي من أفراد أسرته ، من الأب إلى الإخوة كل تشجيع ومساعدة على ما يروى ظمأه إلى هذا اللون من المعرفة . ولما كان مذهب مالك هو السائد في مصر ، ويعتبر أتباعه من أنصار الحديث فإن ابن عبد الحكم وجد مادة وافرة في هذا الموضوع ،الذي صار شغل الناس جميعا في القرن الثاني الهجري ، وحجر الزاوية في الحركة العلمية في مصر ، وغيرها من البلاد الاسلامية .

غير أن ابن عبد الحكم سلك في جمع الأحاديث طريقة تختلف عما نهج عليه إخوته ووالده ، إذ عمد إلى جمع ما يتعلق منها بأخبار مصر ، ونسقها بطريقة فريدة جعلته يبذ من سبقه في هذا المضمار . ثم إنه سجل ما جمعه ، في صورة شاملة ، تكشف عن الدور الجليل الذي قامت به مصر في خدمة الحضارة العربية والإسلام كذلك ، في المرحلة الأولى من حياتها في ميدان العروبة . وعرف الناس لهذا المؤرخ الجليل قصب السبق على سائر إخوته في هذا اللون من الدراسات القيمة ، حتى إنهم

لم ينادوه باسمه الأول ، وهو عبد الرحمن ، وإنما صار يعرف من دون إخوته جميعاً باسم « ابن عبد الحكم » ، لأنه خلد آثار أسرته العلمية في خدمة وطنها مصر .

مشاكل السياسة

الخصومات السياسية :

قاسم المؤرخ ابن عبد الحكم أسرته حلو الحياة ومرّها كذلك . فكما أنه أفاد الشيء الكثير من نشاط أفراد الأسرة في ميدان الدراسات الدينية ، وشيّد على نتائجها مؤلفاته التاريخية القيمة ، فإنه اكتوى أيضاً بما تعرضت له أسرته من متاعب سياسية ، وكانت عديدة ومتلاحقة . ذلك أن أسرة ابن عبد الحكم لم تقصر نشاطها على ميدان الدراسات الدينية فحسب ، وإنما أسهمت أيضاً بدور خطير في مجريات الأحداث السياسية التي امتلأت بها الديار المصرية منذ أواخر القرن الثاني الهجري . وشاءت الأقدار أن تتجمع المشاكل السياسية التي واجهتها أسرة ابن عبد الحكم في السنوات الممتدة من مولده عام ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م إلى عام وفاته بالفسطاط ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م ، وتركت في نفسه وفي اتجاهاته أعمق الآثار .

وبدأت أولى المشاكل السياسية التي شاهدها المؤرخ ابن عبد الحكم على عهد والده عبد الله . إذ امتلأت السنوات الأخيرة من حياة

هذا الوالى بخصومات سياسية عديدة بين كبار رجالات مصر ، بسبب الفوضى التى عمّت البلاد ، نتيجة الخلاف بين الأمين والمأمون . ذلك أن نفراً من الجند فى مصر غضبوا حين علموا بخلع الأمين لأخيه المأمون ، وطالبوا بعزل الأمين . وتزعم هذه الحركة المعادية للأمين أحد قادة الجند فى مصر ، وهو السرى بن الحكم . وفى نفس الوقت أخذ المأمون يشجع هذه الحركة المؤيدة له ، وجعل عباد بن محمد بن حيان هو المنظم للدعوة لخلافته بمصر . وفى ١٩٧ هـ / ٨١٣ م ، بعث عباد جيشاً لحرب الحزب المعادى له ، والذى اتخذ من الحوف الشرقى فى الدلتا مقراً لحركاته : ولكن قائد هذا الجيش ، وهو عبد العزيز الجروى ، لقى هزيمة فادحة ، والتجأ إلى قومه من لخم وجذام فى فاقوس .

وفى تلك الأثناء أخذ الموقف فى مصر يتطور من نزاع بين «الأمين» و «المأمون» إلى نزاع بين رجالات البلاد للاستئثار بالسلطة من دون الخلافة . ذلك أن أقارب الجروى فى فاقوس حرضوه على أن يدعو لنفسه ، وقالوا له : « لم لا تدعو لنفسك ، فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأمر » . وصادف ذلك قبولا فى نفس الجروى ، واتخذ من بلبيس مقراً له ، وبعث منها عماله لجباية الخراج من مصر السفلى . ولم ينته النزاع فى مصر بعد أن وردت الأنباء بقتل الأمين ، ومجىء وال جديد للبلاد من قبل الخليفة المأمون . إذ تطلع السرى ، الذى سبق له القيام بالدعوة للمأمون إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى مصر ، ومنافسة الجروى فى الحكم . وانتهى الأمر بأن

انقسمت البلاد بين هذين القائدين، حيث امتد سلطان الجروى على شرق الدلتا، على حين استولى السرى على الوجه القبلى من مصر (الفسطاط) إلى أسوان .

ولم يغير وفاة الجروى والسرى كذلك فى سنة ٢٠٥ ﻫ / ٨٢٠م، من الأحوال فى مصر . فقد ورث أبناء هذين القائدين ما كان بين أبويهما من خلاف ، واشتد النزاع بينهما ، دون أن يفعل الخليفة المأمون شيئاً ، لأنه كان مشغولا بمسائل داخلية عديدة . وانتهى هذا النزاع أخيراً فى صالح عبيد الله بن السرى ، حيث اضطر على بن الجروى إلى الفرار إلى العريش سنة ٢٠٩ ﻫ/٨٢٤ م . وخضعت مصر كلها لابن السرى ، الذى أسس لنفسه أسرة مستقلة فى البلاد .

وكان الخليفة المأمون قد انتهى إذ ذاك من متاعبه الداخلية ، وتفرغ لشئون مصر . فبعث قائده عبد الله بن طاهر على رأس جيش عظيم للقضاء على الفتن الداخلية بمصر . وعندما اقترب هذا القائد من البلاد انضم إليه على بن الجروى ، على حين رفض عبيد الله بن السرى التسليم . ولذا دارت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بهزيمة عبيد الله ابن السرى ، وطلبه الدخول فى مفاوضات من أجل التسليم ، والحصول على أمان لنفسه من الخلافة . وانتدب عبدالله بن طاهر رئيساً لسفارته إلى ابن السرى ، والد المؤرخ ابن عبدالحكم ، وهو عبد الله بن عبدالحكم .

وكشف عبد الله بن عبد الحكم عن مهارة دبلوماسية أثناء توليه

مفاوضات الصلح بين الطرفين المتنازعين . ذلك أن عبيدالله بن السرى طلب من عبد الله بن عبد الحكم أن يدوّن له صيغة خاصة بأمان يوقعه قائد الخليفة المأمون . وتخلص عبد الله بن عبد الحكم من هذا المأزق الخطر ، بأن قال لابن السرى : « أصلح الله الأمير ، لسنا أصحاب وثائق ، وقاضى الأمير له علم بذلك . » وتولى القاضى ابراهيم بن الجرّاح كتابة صيغة الأمان ، ووضع فيها شروطاً علّق قبولها بأيمان مغلظة ، منها أن يقسم عبد الله بن طاهر بالطلاق . واستبد الغضب بقائدالخليفة المأمون،حين استلم هذا الكتاب وعرضه على عبد الله بن عبد الحكم ،قائلا له : « أمثلى يستحلف بهذه الإيمان » .

وكادت المفاوضات تفشل لولا حكمة عبد الله بن عبد الحكم مرّة أخرى ، فقال لقائد الخليفة المأمون ليهدىء من غضبه : « أصلح الله الأمير ، إن الذى يجرى الله عز وجل على يدى الأمير من حقن الدماء وصلاح ذات البين يسهّل مثل هذا عليه . » وأعجب القائد عبد الله ابن طاهر بهذا الرد اللبق ، وقبل أن يشهد على ما جاء فى كتاب الأمان ، ثم منح ابن السرى قدراً كبيراً من المال . وانتهت بذلك الفتن التى ظلت تقريباً عشر سنوات . بفضل دبلوماسية والد المؤرخ ابن عبد الحكم .

وظل عبد الله بن عبد الحكم موضع ثقة القائد عبد الله بن طاهر ، ولا سيما بعد أن تولى ولاية مصر ، فقد جمع الوالى عبد الله بن طاهر

مجلساً كبيراً من الفقهاء ، من بينهم عبد الله بن عبد الحكم ، واستشارهم في تعيين قاض جديد . وذكر الحاضرون عدة أسماء لم يقبل منها الوالى غير الشخص الذى أشار به عبد الله بن عبد الحكم ، وهو القاضى عيسى بن المنكدر .

ولكن لم تلبث أحوال عبد الله بن عبـــد الحكم أن تغيرت سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م ، حين وردت الأخبار بأن الخليفة المأمون عين أخاه المعتصم على مصر . إذ ذهبت جماعة من الصوفية بمصر إلى القاضى ابن المنكدر ، وطلبوا منه أن يكتب إلى الخليفة المأمون خطاباً بأن المصريين لا يقبلوا ولاية المعتصم . ولكن عبد الله بن عبد الحكم نصح القاضى بألا يستمع لأقوال الصوفية ، فأبى القاضى وكتب إلى المأمون . وعندما ورد الخطاب إلى الخليفة عرضه على المعتصم ، الذى استبد به الغضب ، وأقسم لينتقم من أهل مصر . وحين حضر إلى مصر عزل القاضى وحبسه كما حبس عبد الله بن عبد الحكم ، متهماً إياه بالاشتراك فى العمل الذى سبق أن قام به القاضى ، على الرغم من عدم ثبوت الأدلة عليه ، وظل عبد الله فى السجن أياماً مرض بعدها وتوفى إثرها سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩م .

وبذلك شاهد المؤرخ ابن عبد الحكم أول مأساة تحل بأسرته ، فى شخص والده ، نتيجة الانغماس فى تيار الخصومات السياسية فى مصر . ثم بدأت المتاعب تنهال على سائر أفراد الأسرة بعد وفاة هذا الوالد حتى لحق الأذى بهم جميعا دون استثناء .

محنة خلق القرآن :

بعد موت عبد الله بن عبد الحكم بثلاثة عشر عاما تعرضت أسرته إلى متاعب أخرى قاسـية ، شمل أذاها سائر أفرادها ، ومن بينهم المؤرخ بن عبد الحكم . وبدأت هذه المتاعب الجديدة مع ظهور مسألة خلق القرآن ، وهى إحدى المسائل التى أثارتها المعتزلة ، حين ظهرت بتعاليمها كما ظهر غيرها من الفرق والمذاهب . وقد اتخذت الدولة العباسية الاعتزال مذهبا رسميا لها ، فى عهد الخليفة المأمون ، وبقى الحال على ذلك إلى عهد الخليفة المتوكل . وكانت مسألة خلق القرآن هى المسألة التى تركز فيها نشاط المعتزلة فى تلك الفترة ، أى من سنة ٢١٨ ﻫ إلى ٢٣٤ ﻫ ، وذلك لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها قامت على أكبر أصل من أصولهم ، وهو التوحيد ، وعدم تعدد صفات الله .

وفى سنة ٢١٨ ﻫ/٨٣٣م أصدر الخليفة المأمون ، بتأثير القاضى المعتزلى ابن أبى داود ، إعلانه الخطير الذى قرر فيه مبدأ خلق القرآن ، مخالفا فى ذلك رأى أهل السنة الذين يقولون بأزليته . وصدرت الأوامر إلى عمال الدولة فى كل مكان بامتحان القضاة والفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ، ومعاقبة من لا يقر بخلقه . وكان والى مصر إذ ذاك هو كيدر نصر بن عبد الله ، الذى حكم البلاد نيابة عن المعتصم ، أخى الخليفة . إذ وصل هذا الوالى خطاب من المعتصم ، بأن يكلف قاضى مصر ، وهو هارون بن عبد الله الزهرى بأن يمتحن الناس فى مصر ، وألا يأذن

لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن . غير أن هذا القاضى لم يشتد فى امتحان الناس ، وظل الحال على ذلك إلى أن توفى المعتصم ، وتولى الخلافة من بعده أخوه الواثق .

وكان الخليفة الجديد يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به المأمون . ولذا عهد إلى أحد الفقهاء المقيمين بمصر ، وهو محمد بن الليث الخوارزمى بأن يتولى امتحان الناس فى القول بخلق القرآن ، نظرا لما عُرف عنه من الشدة والصرامة . ثم اتسع سلطان هذا الفقيه حين ولى قضاء مصر ، إذ أخذ يتعقب الناس جميعا ، حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ « بالمحنة » ، التى صارت علما على هذا الحدث الخطير ، الخاص بامتحان الناس فى القول بخلق القرآن .

وأصاب أفراد أسرة ابن عبد الحكم الكثير من الأذى فى هذه المحنة ، لأنهم كانوا من رؤساء المالكية ، وبالتالى من أنصار السنة ، الذين لا يقرون القول بخلق القرآن . ووقع العقاب بأكبر أفراد هذه الأسرة وهو عبد الحكم ، إذ أبى الاعتراف بخلق القرآن ، ولم يثنه التعذيب عن رأيه . ومن ثم أرسل القاضى هذا الفقيه القوى الشكيمة إلى العراق لتتولى السلطات المركزية استجوابه ، والتصرف فى أمره بما تراه . وامتنع عبد الحكم عن القول بخلق القرآن أيضاً وهو فى العراق . ولذا ضرب بالسياط وألقى به فى السجن ، حيث لقى الكثير من المتاعب والعذاب هناك .

واستخدم القاضي ابن أبي الليث أساليب أخرى قاسية ضد الأخ الثاني ، وهو محمد بن عبدالحكم ، الذي آلت إليه إذ ذاك رئاسة طائفة المالكية في مصر . فأصدر القاضي أمرا بمنع أتباع هذا الفقيه المالكي من الجلوس بالمساجد ، ثم التشهير بهم في كل مكان . وانتدب القاضي لتلك المهمة أحد رجاله العتاه ، وهو المعروف باسم « مطر » ، الذي لجأ إلى شتى الطرق للسخرية من فقهاء المالكية ، ورئيسهم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . وكان أولئك الفقهاء يتخذون مع ملابسهم قلانس طويلة ، يضعونها على رؤوسهم ، دلالة على مكانتهم الرفيعة في المجتمع . ولذا عمد « مطر » عامل القاضي على الإطاحة بتلك القلانس أمام الناس في الطرقات ، إمعانا في الحط من شأن الفقهاء . وحدث ذلك لمحمد بن عبد الحكم ، وهو في طريقه إلى القاضي ابن أبي الليث لامتحانه في القول بخلق القرآن .

وكان العقاب الذي لحق بهذا الفقيه المالكي شديدا ، حتى إنه اضطر أمام التعذيب إلى القول بخلق القرآن . ثم إن القاضي لم يكتف بهذا التعذيب ، وإنما أمر بان يطاف بمحمد بن عبد الحكم ، وعمامته في رقبته ، في الطرق ، وأن يجهر بأعلى صوته بالقول بخلق القرآن ، وكان هذا الموكب يمر أمام مجالس أنصار المعتزلة الذين صاحوا بابن عبد الحكم مستهزئين . ووصف أحد الشعراء المعاصرين ما حدث لمحمد بن عبد الحكم وإخوته من سخرية واستهزاء ، في قصيدة مدح بها القاضي ابن أبي الليث ، فقال :

والمالكية بعد ذكر شائع أخملتهما فكأنها لم تذكر
ومحمد الحكمى أنت أطفته وأخاه يمحق بالصباح الأنجر
كل ينادى بالقرآن وخلقه فشهرتهم بمقـــالة لم تشهر

وتركت اضطهادات القاضى ابن أبى الليث بأسرة ابن عبد الحكم أسوأ الآثار فى نفوس الأهالى الذين حملوا لتلك الأسرة كل تقدير واحترام. وانفجر سخط الناس على هذا القاضى بعد ثمانية أيام من تشهيره بأبناء هذه الأسرة، والاستهزاء بقلانس الفقهاء أيضا. إذ هجم عامة الناس على موكب القاضى أثناء اجتيازه لبعض الطرقات، وانتزعوا قلنسوته، وأخذوا يلهون بها، على نحو ما أمر به القاضى من قبل بقلانس فقهاء البلاد ورئيسهم من أبناء عبد الحكم. ثم لم يلبث مركز القاضى ابن أبى الليث أن بدأ يتدهور حين ولى الخلافة المتوكل العباسى، إذ رأى هذا الخليفة أن مسالة خلق القران قد طال أمدها، وبعث إلى واليه على مصر سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م يأمره بترك الجدول فى القرآن وإبطال المحنة.

وفرح الناس فرحا عظيما بخلاصهم من محنة خلق القرآن، وأخذت الشائعات تروج بينهم عن اقتراب عزل القاضى ابن أبى الليث. وتولى الفقهاء فى المساجد الترويج لتلك الشائعات التى لقيت هوى فى نفوس الناس، دون أن يأبهوا بتهديدات القاضى. ثم لم تلبث الشائعات أن تأكدت حين ورد أمر الخليفـــة بعزل القاضى ابن أبى الليث،

سنة ٢٣٥ ﻫ ، أى فى العام التالى لإبطال محنة القول بخلق القرآن .
وعندئذ هجم الناس على مجلس ابن الليث بالمسجد ، وقذفوا بما كان به من الحصر ، ثم غسلوا المكان بعد ذلك بالماء ، رغبة فى تطهيره ، ودلالة على إزالة ما علق بهذا الموضع من آثام . وأمر الخليفة بالتحقيق مع القاضى المعزول ثم ألقى به فى السجن ، لثبوت الشىء الكثير من الأخطاء التى ارتكبها فى حق أبناء عبد الله بن عبد الحكم ، وغيرهم من فقهاء مصر . ويبدو أن الخليفة رغب فى إزالة الآثار السيئة التى خلفها هذا القاضى فى نفوس الناس ، لأنه بعث بكتاب إلى الوالى على مصر يأمره فيه بأن يلعن ابن أبى الليث على المنبر . وردد الحاضرون فى المسجد هذا اللعن ، تنفيسا عما فى نفوسهم من حنق على ذلك القاضى الذى أساء أكبر إساءة إلى أعظم أسرة مصرية ، وهى أسرة ابن عبد الحكم .

عام النكبة :

ولم تكد أسرة المؤرخ ابن عبد الحكم تفيق من مأساة خلق القرآن . حتى تعرضت لكارثة أخرى ، أشد من الكوارث التى سبقتها كلها . ووقعت هذه المأساة الجديدة بعد ثلاثة أعوام فقط من إبطال محنة خلق القرآن ، أى سنة ٢٣٧ ﻫ / ٨٥١ م ، وشمل أذاها جميع أفراد أسرة ابن عبد الحكم دون استثناء . وكان السبب فى تلك الكارثة الأخيرة ، هو تصفية الوضع السياسى الذى ساد البلاد المصرية

منذ ثورات أبناء السرى ، وأبناء الجروى فيها ، على عهد الخليفة المأمون . والمعروف أن عبد الله بن عبد الحكم ، والد هذه الأسرة المنكوبة ، قد اشترك فى تصفية تلك الأوضاع ، حين أسهم فى خدمة القائد العباسى عبد الله بن طاهر ، والذى جاء إلى مصر سنة ٢١٠ هـ ، وأخمد الفتن بها .

وعلى الرغم من استقرار الأمور بمصر ، فإن الخلافة العباسية أخذت فى محاكمة أولئك الذين أثاروا الفتن بالبلاد ومصادرة أموالهم . ومن ذلك أن الخلافة بعثت بأحد قادتها ، وهو الأفشين للتحرى عن ثروة ابن الجروى ، تمهيدا لمصادرتها . وكان ابن الجروى قد استطاع تهريب أمواله كما رفض الإفشاء بأسماء من أخفى عندهم تلك الأموال . وبدأت بعد ذلك سلسلة طويلة من التحريات ، للكشف عن أموال ابن الجروى المهربة ، واستمرت إلى عهد الخليفة المتوكل ، الذى أمر بإبطال محنة القول بخلق القرآن ، والذى ألقى بسببها بالقاضى ابن أبى الليث فى السجن بمصر .

وفى سنة ٢٣٧ هـ كشفت التحريات فى مصر على أن شطرا كبيرا لجمع أموال ابن الجروى المهربة توجد لدى أبناء أسرة ابن عبد الحكم . وعندئذ بعثت الخلافة إلى مصر بأحد قاداتها القساة ، وهو يزيد التركى وأخذ أموال ابن الجروى . واتبع هذا القائد أساليب تعسفية بالغة وجائرة فى نفس الوقت ، ومن ذلك أنه أطلق سراح القاضى ابن أبى

الليث ، المعروف بعدائه الشديد لأسرة ابن عبد الحكم ، وأعاده إلى منصب القضاء مرة أخرى ، وليتولى النظر فى محاكمة تلك الأسرة بتهمة إخفاء أموال ابن الجروى . وبعث هذا القاضى أعوانه فى شتى النواحى للتحرى عن أفراد هذه الأسرة ، ومن اتصل بهم من كبار رجال الدولة طيلة أيام وجوده فى السجن .

واتبع القاضى ابن أبى الليث وسائل غير شرعية فى تحرياته ، حيث أغدق الأموال على أنصاره الذين سبق أن ألقى بهم فى السجن معه . فاستولى هذا القاضى على ما فى خزانة البلاد من أموال ، وكانت كثيرة ، وفرقها على أتباعه بسخاء . وروى أحد أتباع ابن أبى الليث طريقة توزيع المال قائلا لأحد أصدقائه . « جاءنى رسول القاضى البارحة بعد ليل ، فمضيت إليه ، فقال : إنك تكثر الدعاء لنا والثناء علينا ، فخذ من ذلك المال ما شئت ... فنظرت وإذا بأكياس كثيرة فى جانب داره ، فأخذت من هذا المال ... وما التفت إلىّ حين أمرنى بأخذه » . وترامت الأخبار بذلك إلى والى مصر ، ولكنه تغاضى عن ذلك مؤقتا ، لأن إطلاق سراح ابن أبى الليث كان يعنى استغلال كراهيته لأبناء أسرة ابن عبد الحكم ، وليتولى النظر فى الاتهام الموجه إليهم بإخفاء أموال ابن الجروى .

وعقد القاضى إبن أبى الليث جلسة للنظر فى أموال ابن الجروى ، ومحاكمة المتهمين بها ؛ وهى القضية التى عرفت باسم « قضية بنى عبد الحكم » ،

بسبب الأحكام القاسية التى ألحقت بهم . إذ حكم ابن أبى الليث على أبناء عبد الله بن عبد الحكم بدفع غرامة مقدارها مليون ونصف مليون دينار تقريباً (١,٤٠٤,٠٠٠ دينار) . وسرعان ما اتخذت الاجراءات القضائية لتحصيل تلك الغرامة الباهظة ، من حيث مصادرة أموال وممتلكات بنى عبد الحكم ، كما زج بهم فى السجون ، ولاقوا الىء الكثير من التعذيب بغية الإقرار بما لديهم من أموال . ومات أكبر أفـــراد الأسرة ، وهو المعروف باسم عبد الحكم بن عبد الله ، بسبب التعذيب الشديد الذى لقيه فى السجن . وراح ضحية التيارات السياسية فى البلاد . أما ممتلكات الأسرة فقد صودرت كذلك ، ونهبت منازلها ، وصارت قصتها على كل لسان .

وبعد ثلاثة أشهر من تلك المحاكمة الباغية التى عقدها القاضى ابن أبى الليث لبنى عبد الحكم ، ورد كتاب من الخليفة المتوكل إلى واليه على مصر بإطلاق سراحهم ، وإعادة الأموال التى صادرتها الحكومة منهم . وبعد شهرين من إعادة الحق إلى هذه الأسرة المنكوبة ورد كتاب آخر من الخليفة المتوكل أيضاً ، يأمر فيه والى مصر «بحلق رأس ابن أبى الليث ، ولحيته ، وضربه بالسوط ، وحمله على حمار بإيكاف ، وتطوافه بالفسطاط » ، ثم إعادته إلى السجن . وهكذا انتقمت المقادير من هذا القاضى الذى يعتبر المسئول الأول عن الإطاحة بهذه الأسرة الكريمة ، أسرة بنى عبد الحكم ، التى كرست جهدها ، وعلمها ، ومالها ،

وذكاءها ، لخدمة وطنها فى مصر ، وذلك فى شتى الميادين الثقافية والسياسية .

ولم تستطع أسرة بنى عبد الحكم أن تسترد سالف مكانتها وهيبتها فى البلاد ، بعد الكوارث العديدة المتلاحقة التى نزلت بها . فأبى بعض القضاة استدعاء من بقى منهم على قيد الحياة للشهادة ، كما أن أولئك الأبناء آثروا بدورهم الركون إلى الهدوء والسكينة دفعاً لهم عن أية شبهة ، أو أذى فى البقية الباقية من حياتهم . ولكن شاءت المقادير أن تحفظ لتلك الأسرة ذكراها ، وتروى للأجيال المتعاقبة على مر القرون تفانيها فى خدمة الدراسات الإسلامية وتقواها ، عن طريق العمل الفريد الذى نهض به المؤرخ ابن عبد الحكم . إذ جاء تسجيله لتاريخ مصر فى المرحلة الأولى من حياتها فى ظل العروبة والإسلام ، ثمرة ناضجة من الثمار الشهية التى قدمتها أسرة بنى عبد الحكم من أجل خدمة وطنها ، وأثراً باقياً من آثارها العديدة التى تركتها هادياً ومرشداً لمن جاء بعدها من الأجيال الظامئة للعلم والعرفان .

الفصل الثالث

تدوين التراث العربى

عصر النهضة التاريخية :

عاش المؤرخ ابن عبد الحكم فى عصر من أهم عصور اليقظة الفكرية ، ليس فى تاريخ الثقافة العربية فحسب ولكن فى تاريخ الفكر والثقافة فى العالم كذلك . فإذا كان هذا المؤرخ قد ولد فى نهاية القرن الثانى الهجرى (١٨٧ هـ) ، فإنه شب وترعرع فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، والذى يمثل مطالع الثمار الفكرية التى شملت المدارس الإسلامية ، والتى أقامها العرب فى سائر الأقطار التى فتحوها . وكان من آيات هذا التطور الفكرى الهام انطلاق حركة الترجمة إلى العربية انطلاقا واسع المدى ، حتى أنها قطعت أشواطا هائلة فى طريق التقدم . فصار العرب سادة مناهل الفكر القديم ، ويملكون فى دوائرهم الثقافية أشهر مؤلفات أرسطو الفلسفية وغيرها من كنوز العلماء اليونانيين القدامى ، وذلك فضلا عن المؤلفات الفارسية والهندية التى تتناول البحوث العلمية .

ولم تمض سنوات قليلة على حركة الترجمة حتى هضم العلماء العرب ما أنفق القدامى القرون فى توضيحه ، وعمدوا إلى الملائمة بين ذلك التراث القديم وبين تراثهم الإسلامى الجديد . وظهرت معالم الامتزاج بين الثقافات العربية الأصيلة وبين الثقافات القديمة فى اشتغال العرب بمعارف جديدة لم يكن لهم بها علم من قبل . غير أن هذه النهضة الثقافية التى قام بها العلماء العرب تمشت مع انتشار الإسلام ، وصارت الصبغة الإسلامية هى الغالبة عليها . وكانت الدراسات التاريخية التى ازدهرت فى هذه المرحلة من عصر الثقافة العربية خير نموذج لهذه الروح الإسلامية الخالصة .

ويرجع السبب فى تلك الخاصـــية الفريدة التى اتصفت بها الدراسات التاريخية إلى أن القائمين بها لم يكونوا فى أول أمرهم من الرجال الذين عاشوا فى كنف الأمراء ، أو ممن عهدت إليهم الدولة بجمع الوثائق والأسانيد ، ثم عرضها بما يتفق ووجهة نظر السلطات الحاكمة ، وإنما عاش أولئك المؤرخون العرب عيشة بساطة تامة ، بعيدين عن زخرف الحياة وبريقها ، وقانعين بالقليل من أسباب العيش . وفى نفس الوقت صرف هذا النفر من المؤرخين جهودهم فى تتبع أحداث ماضى بلادهم وشرح ما امتلأت به حياة أهلها من نزعات مذهبية ، وعقائد سياسية ، وصور اجتماعية . واستهدفوا من ذلك تجنيب مواطنيهم العثرات ، وأخطاء السلف ، وتوضيح النماذج العالية

الجديرة بالدرس والاقتداء . وبذلك جاءت الدراسات التاريخية التى قام بها المؤرخون العرب صورة نزيهة للمجتمع الذى عاشوا فيه وتعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وتجاربهم .

وساعد على نزاهة تلك الدراسات العربية الأولى فى ميدان التاريخ أن القائمين بها نشأوا فى مهاد الدين ، وشبوا وترعرعوا فى خدمة مطالبه كذلك . فاقترنت الدراسات التاريخية العربية فى أول أمرها برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم . ذلك أن المشتغلين بجمع القرآن وتفسيره ، واستقصاء الحديث كذلك ، احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات ، والمشاهد التى وردت فيها الأحاديث وتحروا فى ذلك منتهى الدقة والأمانة . فالقرآن الكريم حوى الشرائع والأحكام والأخبار التى تهدى الناس سواء السبيل ، فضلا عن أن الأحاديث المأثورة تعين على توضيح ما يواجه الناس من مشاكل ويساعدهم على حلها.

واقتضت هذه الدراسات الدينية أن يكون النبى الكريم وسيرته أول موضوع تتناوله الدراسات التاريخية فى هذه المرحلة من عصر اليقظة الفكرية العربية ، فحياة الرسول الكريم وجهاده أمر جوهرى يفيد أبناء المجتمع ، للسير على هدى سنته والاسترشاد بتعاليمها . وأضفت هذه الدراسات التاريخية الأولى على المشتغلين بها روحا خاصة من النزاهة والورع . ذلك أن تاريخ النبى الكريم كان داخلا فيما يروى

من الحديث ، حيث دأب المحدث فى أول أمره على أن يجمع كل ما وصل إليه علمه من أحاديث النبي ، من غير ترتيب ، ولكن متوخيا الدقة التامة فى الحصول عليها ، والتأكد من نزاهة رواتها . ولما بدأ المشتغلون بالحديث يرتبونها فى أبواب خاصة من حيث المواضيع التى تتناولها ، ظهر منها باب مستقل يقتصر على سيرة الرسول الكريم . وهذا الأمر الأخير كان إيذاناً بمولد الدراسات التاريخية ، التى نهض بها طبقة المؤرخين العرب.

وظهرت باكورة الدراسات التاريخية الأولى فيما يعرف باسم « المغازى والسير » ، لأن المغازى ولو أنه يقصد بها الغزو ، إلا أنها لم تلبث أن صارت قاصرة على جهاد النبى ومرادفة لسيرته . ثم أخذت الأبواب الخاصة بسيرة النبى الكريم تنفصل شيئاً فشيئاً عن الأحاديث ، وصار يطلق على المتخصصين فى جمع أخبار السيرة وغيرها من الحوادث الماضية اسم « الإخباريين » . واشتهر بالتأليف فى هذا الميدان الجديد من المغازى والسير أربعة هم : أبان بن الخليفة عثمان بن عفان ، وعروة بن الزبير ، وشرحبيل بن سعد ، ووهب ابن منبه . وتخرج على أيدى هؤلاء الأساتذة الأربعة عدة أجيال من المؤرخين ، الذين وضعوا الحجر الأساسى للدراسات التاريخية فى البلاد التى فتحها العرب ، وحملوا إليها راية الإسلام

شيوخ الرواة من أساتذة ابن عبد الحكم

مدرسة التاريخ فى مصر :

أسهمت مصر عقب الفتح العربى فى هذه الحركة الثقافية ، حيث تأسست بها مدرسة للتاريخ، تخرج منها عدد عظيم من نجباء المؤرخين ، الذين يقف على رأس قائمتهم ابن عبد الحكم . إذ استطاع هذا المؤرخ المصرى الأول أن يجد فى تلك المدرسة من الدراسات التاريخية القيمة ، ويلق فيها من الرواة الثقاة ، ما أتاح له تسجيل صورة دقيقة عن وطنه فى أهم مرحلة من مراحله الأولى فى ظل العروبة والإسلام ، وترك لمن جاء بعده من أجيال المؤرخين تراثا ثمينا ، وطريقا قويما ، هيأ لهم الاستمرار فى عملهم من أجل خدمة الثقافة العربية ، وتدعيم أوتادها .

واختصت مدرسة التاريخ فى مصر بلون هام من الدراسة ، كان له أكبر الأثر فى إنتاج ابن عبد الحكم العلمى ، إذ انتشر فى مصر عقب الفتح الإسلامى لون من القصص الدينى ، شجع على ظهور طبقة من الناس لجمع أخبارها ، وعرض مادتها عرضا طيباً . وأطلق على هذا النفر من الناس الذين عنوا بجمع الأخبار الشائقة ، والتى تثير حب الاستطلاع اسم «القصاص» ، وأحيانا اسم الرواة والإخباريين . وجرت العادة على أن يجلس القاص فى المسجد وحوله الناس ، ويقص

عليهم حكايات وأحاديث تدور حول شخصية النبى وأبطال الإسلام، أو عن الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن، متبعاً فى ذلك أسلوب الترغيب والترهيب. وشاع هذا اللون من القصص التاريخى لأنه يتفق وميول الناس، ولأن الأحداث السياسية على عهد الفتن بين على ومعاوية، جعلت منه أداة فى يد الأحزاب المتنافسة.

وأدت هذه التطورات الهامة إلى أن يصبح القصص عملا رسميا، وعهدت الدولة به إلى رجال رسميين وأعطتهم عليه أجرا. وبدأ هذا التنظيم الجديد على عهد معاوية بن أبى سفيان الذى احتاج إلى رواة القصص لتشجيع أنصاره ضد على بن أبى طالب. وحفلت المدرسة المصرية بأعداد كبيرة من أساتذة هذا اللون من القصص التاريخى، كما نبغ منهم بعض الأفراد العلماء. ومن أول هؤلاء العلماء وأشهرهم «سليم بن عتر التجيبى»، وكان من التابعين. «وهو أول من قص سنة ٣٩ هـ. وولاه معاوية القضاء سنة ٤٠ هـ، فأقام قاضيا عشرين سنة. واشتهر هذا العالم بأنه أول من أحدث فى مصر سجلا للمواريث، وبأحكامه المأثورة أيضاً». ولم يتخل سليم بن عتر عن وظيفة القاص حتى بعد أن ترك القضاء، واستمر يعظ الناس، متخذا مقرا له فى جامع عمرو بن العاص. وظل هذا العالم الجليل موضع تقدير الناس لما عرفوه عنه من كفاية علمية فى قصصه وأحكامه، وكفاية إدارية أيضا فيما وكل إليه من أعمال أخرى، مثل تنظيم الخراج والقضاء.

واشتهر من مدرسة مصر أيضاً ، عبد الرحمن بن جحيرة ، الذى ولى القضاء لعبد العزيز بن مروان ، وجمع إليه القضاء وبيت المال . وحصل هذا العالم على راتب عظيم نظير المهام التى قام بها . ومن ذلك أنه نال فى السنة « من القضاء مائتى دينار . ومن القصص مائتى دينار ، وكان رزقه فى بيت المال مائتى دينار ... فلا يحول عليه الحول وعنده شىء منها يفضل على أهله وإخوانه » . وظل ابن جحيرة فى منصب القضاء اثنتى عشرة سنة ، واشتهر بمعلوماته التاريخية ، ولا سيما فيما يتعلق بعصر الخلفاء الراشدين ، فكان يستشهد بأقوال للخليفة عمر بن الخطاب ويشرحها للمستمعين له .

واضطلعت القصة التاريخية منذ ذلك الوقت بدور هام فى تدعيم أركان الحياة الثقافية بمصر ، ونشر الوعى بين أهلها ، من أبناء الجيل العربى الجديد بها . ذلك أن القصاص اتخذ من تاريخ مصر القديم ، ولا سيما ما ورد منه فى القرآن الكريم مادة له ، كما استمد من أخبار القبائل العربية قبل الإسلام ما يساعده على تحقيق الأغراض السياسية أو الاجتماعية التى تطلبتها السلطات الرسمية . ووجدت هذه القصص طريقها بعد ذلك إلى التدوين ، ونقل منها المؤرخ ابن عبد الحكم الشىء الكثير فى مؤلفاته ، خاصة فيما كتبه عن تاريخ مصر القديم ، والمرحلة السابقة للفتح الإسلامى لها .

وظلت هذه الحركة العلمية رائد الدراسات التاريخية فى مصر ، كما

غذاها مجيء عدد من الاخباريين وأصحاب المغازى إليها ، ومن هؤلاء محمد بن اسحق ، صاحب السيرة ، وعبد الملك بن هشام راويها . أما الأول فجاء إلى مصر سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م ، أى قبل مولد المؤرخ ابن عبد الحكم بحوالى سبعين سنة تقريبا . وقد اتصل صاحب السيرة بعدد من أساتذة المدرسة التاريخية فى مصر ، ونقل عنهم كثيرا من المادة التاريخية التى ضمنها مؤلفه القيم عن المغازى . وعاد ابن اسحق إلى المدينة ، بعد أن تزود بقدر جليل من المادة التاريخية ، جعلته يعتبر حجة فى سيرة الرسول ، وموضع تقدير المعاصرين له من العلماء .

ولم يصل إلينا من سيرة ابن اسحق سوى مختصرها ، الذى قام به أحد المؤرخين من أبناء مدرسة مصر ، وهو عبد الملك بن هشام ، الذى أسهم فى نشاط تلك المدرسة حتى وفاته سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م . أى أنه عاصر مؤرخ مصر الأول ابن عبد الحكم وهو فى العقد الرابع من عمره . وصادف دخول ابن هشام مصر وجود الإمام الشافعى بها فى ضيافة أسرة ابن عبد الحكم ، وكان لهما مساجلات رائعة ، تركت أثرا عظيما فى البلاد ، وفى مؤلفات ابن عبد الحكم نفسه . وظهر فى مختصر السيرة الذى قام به ابن هشام استفادته من مدرسة مصر التاريخية ، فروى عن علماء هذه المدرسة كثيرا ، ومن ذلك على سبيل المثال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عبد الله بن لهيعة ، عن عمر مولى غفرة أن رسول الله ﷺ قال : الله الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة

السوداء ، الشحم الجعاد ، فإن لهم نسبا وصهرا . قال عمر مولى غفرة : نسبهم أن أم اسماعيل منهم ، وصهرهم أن رسول الله ﷺ تسرى فيهم . قال ابن لهيعة : أم اسماعيل هاجر من « أم العرب » قرية كانت أمام الفرما من مصر ، وأم ابراهيم مارية سرية النبي ﷺ التى أهداها له المقوقس من حفن من كورة انصنا » .

يزيد بن أبي حبيب :

وكان من أقوى الشخصيات فى مدرسة التاريخ بمصر ، والذى تخرج على يديه أولئك العلماء ، والذين نقل عنهم ابن هشام فى سيرة النبى ، عالم عظيم إسمه يزيد بن أبى حبيب . وهو نوبى الأصل من مدينة دنقلة ، ولد سنة ٥٣ هـ / ١٢٨ م ، وتوفى سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٦ م ، وبذلك لحق آخر الصحابة الذين نزلوا مصر ، ونقل عنهم الكثير من الأخبار . ثم إنه أجاد المعرفة بالدراسات الدينية ، ووصل فيها إلى درجة عالية أهلته لأن يتولى منصب الإفتاء بمصر على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهو منصب خطير كان قاصرا من قبل على خيرة رجال العرب . ويعتبر هذا الحدث دلالة على قوة الجيل العربى الناشىء بمصر ، وأن الجميع صاروا متساوين فى الخبرة بشئون الدين ، لا فرق فى ذلك بين عربى سكن البلاد وآخر من أهل البلاد تعلم العربية وعلوم الاسلام .

ويرجع الفضل فى المركز الممتاز الذى وصل إليه هذا العالم المصرى إلى أنه وجّه مدرسة مصر نحو التشريع ، دون الاقتصار على ألوان القصص والوعظ . ثم أن يزيد بن أبى حبيب جمع إلى علمه الواسع خبرة عالية بالتاريخ ، وصار على دراية دقيقة بأحداث فتوح مصر ، وما ساد البلاد بعد ذلك من فتن داخلية وحروب . والتقى ابن اسحق صاحب السيرة حين حضر إلى مصر هذا العالم المصرى ، وسمع منه كثيرا من الأخبار . على أن عظمة يزيد بن أبى حبيب تجلت فى نهوضه بالمدرسة التاريخية فى مصر ، وتربية جيل بها من فطاحل المؤرخين . وصار هذا النفر من تلاميذ ذلك الأستاذ الأكبر السلسلة التى وصل منها ابن عبد الحكم إلى دراسة المرحلة المبكرة من تاريخ مصر فى ظل العروبة والإسلام . وتظهر ثمار يزيد بن أبى حبيب فى روايات عديدة وهامة ذكرها ابن عبد الحكم فى مؤلفه التاريخى ، نقلا عن مشاهدات وما وصل إلى مسامع أستاذه الجليل . وترك يزيد ابن أبى حبيب بعده رجلين من تلاميذه المشهورين فى تاريخ مصر العلمى ، وهما عبدالله بن لهيعة ، والآخر الليث بن سعد . وكلاهما صار من شيوخ الرواة الذين نقل عنهم ابن عبدالحكم أخبارا كثيرة عن تاريخ مصر .

عبد الله بن لهيعة :

وهو أحد شيوخ الرواة الذين اعتمد عليهم المؤرخ ابن عبدالحكم اعتمادا كبيرا ، إذ تلقى ابن لهيعة العلم عن أستاذه يزيد بن ابن حبيب

المصرى ، كما اشتهر بكتابته للحديث ، وجمع الأخبار ، والانتقال من مكان إلى آخر طلبا للعلم . وقد ولى قضاء مصر زمن الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى مدة عشر سنوات ، وذلك من ١٥٥ — ١٦٤ هـ ، وهو الأمر الذى أتاح له الخبرة الواسعة بأحوال البلاد .

وكان والد ابن لهيعة أحد التابعين فى مصر ، ومن أسرة وفدت مع الجيش العربى لفتح مصر . ولذا وجد هذا العالم المصرى فى والده سندا يرجع إليه فى رواية أخبار مصر . وبلغ من شغف ابن لهيعة بجمع أخبار مصر ، أنه كانت له خريطة معلقة فى عنقه ، فكان يدور بمصر (الفسطاط) ، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم ، فكان إذا رأى شيخا سأله : من لقيت ؟ وعمن كتبت ؟ » .

وأثر عن ابن لهيعة امتلاكه عدة كتب مخطوطة ، وأنه كان يتابع التدوين لكل ما يروى إليه أو يجمعه من أحاديث . وتعرض بيت ابن لهيعة لحريق سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٧ م ، أطاح بهذه الكتب الثمينة ، وصار هذا العالم يعتمد بعد تلك الكارثة على ذاكرته فى رواية الأخبار والحديث . ولكنه لم يعمر طويلا عقب حادثة الحريق ، وتوفى سنة ١٧٤ هـ / ٧٩١ م ، تاركا لابن عبد الحكم مادة واسعة عن تاريخ مصر المبكر كذلك .

الليث بن سعد :

وعاصر بن لهيعة عالم مصرى آخر عظيم نقل عنه ابن عبد الحكم كثيرا ، وهو الليث بن سعد . وقد ولد الليث فى قرية مصرية إسمها قلقشندة (من قرى القليوبية) سنة ٩٤ هـ / ٧١٣ م ، ثم تعلم على شيوخ مدرسة التاريخ بمصر ، وأشهرهم يزيد ابن أبى حبيب ، الذى قال عنه الليث « هو سيدنا وعالمنا » . وطاف الليث أيضاً ببعض البلاد طلبا للعلم ، وذهب إلى مكة للحج وقابل علمائها ، وكذلك سافر إلى بغداد وسمع من فقائها . وقد عرض عليه الخليفة المنصور منصب القضاء ، ولكنه اعتذر محتجا بضعفه ، وقبل الخليفة عذره فى الوقت الذى لم يقبله من أبى حنيفة .

واشتهر الليث بعلمه الغزير ، حيث أجاد القرآن والنحو والحديث والشعر والمذاكرة ، وروت عنه الكتب الستة الصحيحة ، وقال فيه أحمد بن حنبل : « ما فى هؤلاء المصريين أثبت من الليث ... ما أصح الحديث عنه » . وكانت قدرته فى الفقه تقرن بالإمام مالك ، وراسله بخصوص عدة مسائل فقهية ، كشفت عن أفقه الواسع .

واشتهر الليث بعلمه الواسع فى النواحى الخاصة بتاريخ مصر كذلك ، وخاصة فيما يتعلق بأحداث الفتح الاسلامى لها ، وشئون كبار الموظفين فيها . ولذا حين حضرت الوفاة أمير مصر ، الوليد بن رفاعة قال فى

وصيته . « أسندت وصيتى لعبد الرحمن بن مسافر وإلى الليث بن سعد، وليس لعبد الرحمن أن يفتات على الليث، فإن له نصحا ورأيا . » وحين حضر الإمام الشافعى إلى مصر ، وكان الليث قد فارق الحياة إذ ذاك، وجد سمعة هذا العالم على كل لسان ، وتأسف على أنه لم يسعده الحظ ليلتقى به . ثم أضاف الشافعى قوله : ان الليث أفقه من مالك ، وأن السبب فى عدم تمتعه بمركز الصدارة من دون مالك أن المصريين لم يحفظوا مذهبه ، وعلى حد قول الشافعى نفسه «ضيّعه أهله » . ذلك أن المصريين تعصبوا لمالك ، وظلوا على ولائهم للمالكية .

وأحس الناس بمصر ، على اختلاف مراتبهم وسنّهم ، بالخسارة الفادحة بوفاة الليث . وعبر أحد المعاصرين عن ذلك بقوله ، وكان ممن شهد جنازة الليث : « رأيت الناس كلهم عليهم الحزن ، يعزّى بعضهم بعضا ، فقلت لأبى : يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة . فقال لى : يابنى كان عالما كريما ، حسن العقل ، كثير الأفضال ، يابنى لا ترى مثله أبداً » .

وهكذا تناقل الخلف عن السلف المادة التاريخية الهائلة التى جمعها الليث بن سعد عن وطنه مصر ، حتى وصلت إلى أيدى ابن عبد الحكم ، ووجد فيها كنزا ثمينا أتاح له تدوين الأحداث المبكرة للفتح العربى للبلاد ، وأن يحفظ بالتالى لهذا الأستاذ الجليل ثمار دراسته ، ويسجل له خبرته الواسعة بشئون مصر .

سعيد بن عفير :

وهو من تلاميذ الليث بن سعد ، وممن اعتمد عليهم ابن عبد الحكم في الروايات الخاصة بقضاة مصر . ولد هذا العالم سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م ، وتلقى علومه الدينية بمصر ، ثم سافر إلى بغداد والمدينة المنورة ، وسمع الحديث عن الإمام مالك ، وعندما عاد إلى مصر تابع تعليمه على يد أستاذ مصر الليث بن سعد . واشتهر سعيد بن عفير بثقته في رواية الحديث ، حتى إن البخارى والنسائى وغيرهم من أئمة الحديث نقلوا عنه . وفضلا عن ذلك فإن بن عفير درس الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب ومآثرها ووقائعها ، وبلغ فى ذلك درجة عالية من المقدرة والاطلاع الواسع .

ثم أن ابن عفير عرف بحبه الشديد لوطنه مصر ، واطلاعه على تاريخه القديم ، خاصة قبل الإسلام . وتجلى ذلك حين جاء الخليفة المأمون إلى مصر سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م ، وجلس مع علماء البلاد ، ومن بينهم ابن عفير ؛ إذ قال الخليفة : « لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر ، فلو رأى العراق وخصبها ! ! » فقال له ابن عفير : يا أمير المؤمنين ، لا تقل هذا ، فإن الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه » ، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته ! ! ! » . وتوفى هذا العالم المصرى سنة ٢٢٦هـ/٨٤١م ، أى بعد أن التقى به المؤرخ ابن عبد الحكم ، ونقل عنه الكثير من علمه الغزير .

عثمان بن صالح :

وهو من الأساتذة المعاصرين لابن عبد الحكم ، وممن اعتمد عليهم في مؤلفه التاريخي عن مصر .

وتجلت شهرة عثمان بن صالح في قدرته الخارقة للعادة على حفظ تاريخ مصر المبكر ، على عهد كل من عمرو بن العاص، وخلفه في ولاية مصر ، وهو عبد الله بن أبي سرح ، إذ حدث أن جمع القائد العباسي عبد الله بن طاهر سائر علماء مصر ، ولا سيما المعمرين منهم ، وبدأ يناقشهم في عدة أمور تتعلق بعلاقات مصر بجيرانها ، ولا سيما ببلاد النوبة . وكان ينظم هذه العلاقات اتفاقية عقدت منذ أيام حملة قام بها على تلك البلاد ، عبد الله بن أبي سرح ، أيام أن كان واليا على مصر . وثار جدل أيام هذا القائد العباسي، وأثناء وجوده بمصر حول شروط هذه الاتفاقية العربية مع أهل النوبة ، واختلف الحاضرون فيها ، كما تضاربت أقوالهم . وغضب عبد الله بن طاهر ، واحتد في مناقشته مع علماء مصر ، بسبب افتقارهم إلى المعلومات المطلوبة .

غير أن عثمان بن صالح قال للقائد العباسي إن عنده الخبر اليقين عن شروط تلك الاتفاقية ، وأوضح له أن تلك الشروط نفسها موضع جدل واختلاف منذ عهد عبد العزيز بن مروان على مصر ، أي منذ الأيام الأولى لاستقرار العرب في البلاد . وأخذ هذا العالم المصري

يروى لابن طاهر، فى إسناد سليم وفى ثقة الخبير المطلع ، قصة معاهدة العرب مع أهل النوبة ، وأنواع السلع وغيرها من المتاجر التى نصت الاتفاقية عليها . وعندئذ بعث ابن طاهر إلى سجلات الدولة ، وطلب التقارير المحفوظة بها عن تاريخ النوبة وأهلها ، وكان إعجابه بالغ الحد بالعالم المصرى عثمان بن صالح الذى جاءت روايته مطابقة تماما لما هو موجود بالسجلات الرسمية . وتوفى عثمان بن صالح سنة ٢١٩هـ/٨٣٥م.

وأفاد ابن عبد الحكم فائدة كبرى من أستاذه عثمان بن صالح فيما دوّنه عن جيران مصر ، وخاصة بلاد النوبة ، التى اهتمت بها السلطات المصرية اهتماما كبيرا على مر العصور والأزمان . وصار الفصل الذى كتبه ابن عبد الحكم عن بلاد النوبة مرجعا أساسياً للباحثين فى تاريخ العلاقات المصرية بالسودان فى العصور الوسطى .

يحى بن بكير :

وهو عالم مصرى عظيم استفاد منه المؤرخ ابن عبد الحكم فائدة كبرى فى تدوين مؤلفه القيم عن مصر . وقد ولد ابن بكير سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م ، وعاش مدة طويلة وهو معاصر لابن عبد الحكم ، وكان خلالها أستاذاً كريما له ، فضلا عن الخدمات الأخرى التى قدمها لمن اتصل به من الباحثين فى تاريخ مصر .

وكان ابن بكير يسجل ما يصل إليه من روايات وأحاديث ،وجمع

منها قدرا عظيما وأشار المؤرخ ابن عبد الحكم إلى أنه قرأ بعض الكتب التى وضعها ابن بكير ، وراجع ما جاء فيها من رواة وأسناد ، كأن ابن بكير نفسه أعطاه تلك الكتب ، وسمح له بأن ينقل منها مايريد . وتوفى هذا العالم سنة ٢٣١هـ/٨٤٦م ، تاركا لابن عبدالحكم ذخيرة علمية هائلة ، ساعدته على إخراج مؤلفه الفريد عن تاريخ مصر وأيامها الأولى فى حياة العروبة والاسلام .

الفصل الرابع

ابن عبد الحكم ومعاصروه

المنهج العام فى كتابة التاريخ :

جاء ظهور ابن عبد الحكم نقطة تحول هامة فى مدرسة التاريخ بمصر، ذلك أن القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى لم يكد ينتهى حتى ظهرت بمصر مجموعة هائلة من المادة التاريخية، اشتملت على عدد كبير من القصص الشائع والأساطير، فضلا عن الروايات المختلفة الألوان، بعضها مكتوب والبعض الآخر، وهو الغالب شفوى، حيث تناقلته الأجيال تلو الأجيال. وبمطلع القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى تطلب الأمر تدوين تلك الروايات والأساطير تدوينا منظما، لأن الاعتماد على الذاكرة وحدها صار أمراً مستحيلا، ولأن بعض الروايات المزيفة بدأت تأخذ طريقها إلى الوجود، بسبب الفتن العديدة التى امتلأت بها أرجاء البلاد العربية فى ذلك القرن، ومحاولة الأحزاب المتنافسة دس الأحاديث أو الأقوال المأثورة التى تضمن لها تحقيق مآربها. ولذا كان لا بد من تجريد الروايات الصادقة من براثن هذه الحشود الهائلة من الأخبار، وعرضها بما يكفل للأجيال المتعاقبة الاستفادة منها.

وساعد كذلك على هذا التطور الهام فى حركة تدوين التاريخ فى القرن الثالث الهجرى رغبة السلطات الرسمية فى تدعيم النظام المالى فى الدولة ، لأن الخراج الذى كانت تؤديه البلاد التى فتحها المسلمون اختلف من مكان إلى آخر حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبعا للأحداث السياسية والاجتماعية التى سادت تلك البلاد أثناء الفتح . ولما كان الزمن قد بعُد فى القرن الثالث الهجرى بأحداث الفتح ، وصارت ذاكرة الرواة لا تستطيع أن تعى ملابسات الفتوح ، فإن الأمر بات يتطلب التدوين ، حتى لا يثار خلاف حول جباية الخراج من البلاد المفتوحة .

ولذلك حان الوقت فى القرن الثالث الهجرى لكتابة التاريخ بطريقة منظمة ، مؤسسة على القصص والروايات والأخبـــار ، ووفق الأغراض التى استهدفها مؤرخو هذا القرن . وكان هدف ابن عبد الحكم تجريد الأخبار المتعلقة بمصر ، وإفرادها بالتأليف ، حتى يكون كتابه الحجة التى يرجع إليها المعاصرون ، ومن يأتى بعدهم من الباحثين فى تاريخ مصر ، ومعرفة الدور الذى قامت به تلك البلاد فى خدمة العروبة والاسلام . ولم تكن مهمة هذا المؤرخ المصرى سهلة ميسورة ، بسبب كثرة الأقوال والروايات فى مصر ، سواء عن طريق القصاص الذين امتلأت بهم المساجد ، أو الرواة الذين وفد إليهم الناس لسماع الأحاديث ، أو المخطوطات التى دأب نفر من الباحثين على تدوينها طوال النصف الأخير من القرن الثانى ، ومطالع القرن الثالث الهجرى .

وكان المنهج الذى سار عليه ابن عبد الحكم فى تأليفه ، هو المنهج العام الذى اتبعه المعاصرون له من مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، وهو المعروف بطريقة « الاسناد » ، التى جرى عليها رواة الحديث . فكانت كل حادثة تروى بألفاظ شاهد عيان أو معاصر ، ثم تصل إلى الراوية النهائى أو المؤلف عن طريق سلسلة من الرواة (أو الأسناد). وأدى الاسناد إلى نظام الدقة التامة فى تدوين التاريخ ، ولا سيما من حيث الاصرار على تاريخ الحوادث وإرجاعها إلى الشهر ، بل وإلى اليوم . ثم أن نظرية الاسناد لم تكن عملا هينا ، وإنما سببت للقائمين بها متاعب لا نهاية لها ، لأن الأبحاث التى قام بها المؤرخ لتوثيق كل راو تطلب جهدا عظيما . وصارت صحة الأخبار المروية تتوقف على اتصال سلسلة الاسناد ، والثقة فى أمانة كل راوية ، أكثر من توقفها على الفحص النقدى للخبر نفسه .

وحرص ابن عبد الحكم على الدقة فى تحرى أسانيده ، ولا سيما أنه كان محدث ، غلبت عليه طريقة المحدثين من حيث القدرة على تتبع الرواة المشهود لهم بالأمانة . وإذا أحس هذا المؤرخ بأن هناك شك فى إحدى الروايات فإنه أعاد ذكرها ، مع بيان سلسلة الاسناد لكل مظهر من مظاهر تلك الرواية ، وذلك مبالغة منه فى الأمانة العلمية. ومع ذلك ظلت نظرية نقد الرواية التاريخية نفسها أمرا لا يعرفه ابن عبد الحكم ، كما لم يعرفه معاصروه من مؤرخى القرن الثالث الهجرى.

وترتب على ترك الرواية نفسها دون نقد تسرب كثير من الأساطير والقصص المبالغ فيها إلى التاريخ الذى وضعه ابن عبد الحكم . ولكن ذلك لا يقلل من قيمة العمل الذى قام به ، وخاصة أن أمثال تلك الأساطير والقصص تتضاءل أمام الحقائق التاريخية القيمة ، التى كان يتعذر معرفتها عن تاريخ مصر، لولا مجهودات ابن الحكم ، ودأبه المتواصل على جمع الأخبار وتنسيقها .

وهناك ناحية أخرى نجح فيها ابن عبد الحكم ، كما أجاد استخدامها كذلك كل مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، وهى إعادة أواصر المودة والألفة بين مادة التاريخ وميدان جمع الأحاديث النبوية وتبويبها . ذلك أن مؤرخى السيرة منذ فصلوا التاريخ عن الحديث ، وصاروا يعملون على جمع الحوادث والأخبار ، وهم موضع نقد رجال الدين ، الذين أطلقوا عليهم إسم الاخباريين ، للتفرقة بينهم وبين المحدثين . غير أن ابن عبد الحكم استطاع ، كما فعل معاصروه من المؤرخين ، أن يعيد تيار التاريخ وتيار الحديث إلى الالتقاء مرة ثانية . فابن عبد الحكم محدث بارع ، ومن بيت اشتهر كل أبنائه بالفقه والاجادة فى جمع الحديث ، وصار حجة فى دينه ، وموضع ثقة الجميع . ولذا نجح هذا المؤرخ المصرى ، بفضل ما توافر له من خصال الدين والدنيا ، أن يرفع من شأن التاريخ وشأن المشتغلين به كذلك .

واستطاع ابن عبد الحكم أيضا بفضل إجادته للمنهج التاريخى العام الذى اتبعه كل المعاصرين له من المشغلين بالتاريخ أن يضمن لمؤلفه الاحترام، وأن يصبح مرجعا لا يستغنى عنه أحد من الراغبين فى الدراسات العلمية المتعلقة بالمرحلة المبكرة من تاريخ انتشار العروبة والاسلام . وفى نفس الوقت ضمن ابن عبد الحكم لاسمه أن يقف على رأس قائمة المعاصرين له من كبار المؤرخين ، أمثال الطبرى ، والبلاذرى، وابن قتيبة ، ويسهم معهم فى بناء النهضة التاريخية التى اختص بها القرن الثالث الهجرى .

الطبرى :

تلقى سيرة الطبرى ضوءا على حياة المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم، لأن كلا منهما كان محدثا ومؤرخا . ثم إن الطبرى وفد إلى مصر سنة ٢٥٣ ه / ٨٦٧م ، أى قبل وفاة ابن عبد الحكم بأربع سنوات ، وشاهد ازدهار الحركة العلمية فى تلك البلاد ، ونقل عن علمائها الشىء الكثير . فبدأ الطبرى حياته فى مسقط رأسه وهى مدينة آمل ، عاصمة إقليم طبرستان ، بكتابة الحديث ، ثم أخذ يتنقل بين سائر المدن المجاورة القاصية منها والدانية ، حتى ألقى به عصا التسيار إلى الفسطاط ، مسقط رأس ابن عبد الحكم .

ودارت حول إقامة ابن جرير الطبرى بالفسطاط قصص تكشف عن الحركة العلمية بها ، وذكرها الطبرى نفسه قائلا : « لما دخلت مصر

لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيني ، وامتحنني فى العلم الذى يتحقق به . فجاءنى يوما رجل فسألنى عن شيء من العروض ولم أكن نشطت له من قبل ذلك ، فقلت له : « علىّ قول ألا أتكلم اليوم فى شيء من العروض ، فإذا كان فى غد فصِر إلىّ . وطلبت من صديق العروض للخليل بن أحمد ، فجاء به إلى ، فنظرت فيه ليلتى ، فأمسيت غير عروضى وأصبحت عروضيا » .

وعلى هذا النحو من العلم الواسع والهمة العالية بدأ الطبرى يقبل على التأليف ، وأقدم أولا على تفسير القرآن الكريم ، ثم العمل على تدوين التاريخ . وشرح الطبرى منهجه فى كتابة التاريخ ، وهو المنهج العام الذى سار عليه ابن عبد الحكم فى جمع مادته العلمية فقال : « وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره ... هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه دون أن أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا القليل منه ... فمهما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا .

واشتهر كتاب الطبرى فى التاريخ باسم « تاريخ الرسل والملوك »

الذى انتهى فى تدوين أحداثه إلى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٥م ، وسار فيها على أساس عرض المادة التاريخية تحت سنوات الهجرة المتعاقبة ، ذاكراً فى كل سنة ما جمعه من الروايات المتعلقة بشتى الأخبار ، من أول الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ . وتوفى الطبرى سنة ٣١٠هـ/٩٢٣م ، أى بعد ثمان سنوات من فراغه من تأليف كتابه التاريخى الخالد .

البلاذرى :

ويأتى بعد الطبرى من المؤرخين المعاصرين لابن عبد الحكم — البلاذرى ، المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م ، أى بعد وفاة ابن عبد الحكم بنحو اثنتين وعشرين سنة . ويقال أن البلاذرى منسوب إلى البلاذر ، وهو ثمر شربه جده ، فسبب له الوسوسة . وزار البلاذرى عدة بلاد ولقى فيها كثيرا من الرواة ، الذين نقل عنهم فى مؤلفاته التاريخية .

ومن أشهر كتب البلاذرى «فتوح البلدان» ، الذى سجل فيه للفتوح الاسلامية ، وأورد فى كل فصل منه تفاصيل البلد المفتوح ، وذلك استنادا إلى روايات مجموعة من علماء كل إقليم . ثم إنه زار الأماكن التى أرخ لها ، وتعرف على الأفكار الشائعة فيها الخاصة بالقادة الفاتحين ، وطريقة الفتح ، وما ارتبط بذلك من أحداث . واستفاد البلاذرى من أبحاث السابقين له ، ونقل منها الكثير لتوضيح دراساته . غير أن هذا الكتاب وغيره مما وضعه البلاذرى امتلأ بالروايات المتشابهة التى تتفق

فى معانيها مع اختلاف فى العبارة ، أو ترتيب الجمل ، بسبب اعتماده على رواة عديدين ، دون أن يعمل على تحقيق الخبر نفسه ، شأنه فى ذلك شان الطبرى وغيره من مورخى القرن الثالث الهجرى .

ابن قتيبة :

وعاصر ابن عبد الحكم مؤرخ آخر مشهور ، وهو عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى يعرف عادة باسم ابن قتيبة . وقضى هذا المؤرخ سنى حياته فيما بين سنة ٢١٣ هـ ، وهى التى شاهدت مولده ، وسنة ٢٧٠ هـ وهى سنة وفاته ، أى توفى بعد ابن عبد الحكم بنحو ثلاثة عشر عاما . وأجاد ابن قتيبة معرفة فنون شتى أفادته فى عرضه لما جمعه من مادة تاريخية . ومن أهم تلك الفنون الأدب ، حيث وضع فيه مؤلفا عرف باسم « أدب الكاتب » وهو عبارة عن رسالة ليرجع إليها كتاب الدواوين .

واشتملت مؤلفاته التاريخية على كتابين هامين ، أحدهما هو « المعارف » ، وهو موجز من المعلومات التاريخية التى تتألف غالبا من القوائم والحقائق المتصلة بالرسول الكريم ، وجداول للأنساب ، وأسماء الفرق وغيرها . وهنالك كتاب آخر لهذا المؤرخ اسمه « الإمامة والسياسة » ، وهو تاريخ للدولة الإسلامية منذ وفاة الرسول الكريم إلى وفاة الخليفة هارون الرشيد . واتصف هذا الكتاب الثانى بجمال

الأسلوب ، لأن ابن قتيبة صبغه بالصبغة الروائية التى أجاد استخدامها المؤرخون فى القرن الثالث الهجرى .

التاريخ القومى العربى :

ظلت مؤلفات المؤرخين فى القرن الثالث الهجرى — على الرغم من أهميتها العظمى — تفتقر إلى التنسيق أو التبويب الذى يعين القارىء على تتبع موضوع واحد تتبعا منطقيا سليما ، والخروج بنتائج واضحة محددة المعالم عن ذلك الموضوع الذى يرغب دراسته . ذلك أن حرص مؤرخى القرن الثالث الهجرى على جمع كل ما يصل إليهم من مختلف الروايات عن شتى المواضيع جعلهم أصحاب ملكات عالية من حيث إدراك الجزئيات إدراكا دقيقا ، ولكن دون أن يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع . وصار على الباحث فى هذه المؤلفات أن يتذرع بالصبر وهو يطالع الروايات العديدة المتشابهة فى المعنى ، والمختلفة من حيث رواتها وأن يطوى الصفحات تلو الصفحات حتى يستطيع أن يتابع ربط الأحداث التى يحاول دراستها .

وانفرد المؤرخ ابن عبد الحكم ، من بين مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، بمحاولته تجنيب الباحثين التخبط فى تيه الصفحات العديدة ، وماتحتويه من كل واردة وشاردة ، وقدم روايته فى موضوع خاص ، بلغة البحث العلمى فى الوقت الحاضر . فجمع الروايات المتعلقة بتاريخ مصر فى كتاب سماه « فتوح مصر » مستهدفا بيان الدور الذى قام به العرب

فى نشر دعوتهم فى تلك البلاد وما جاورها من الأقطار ، وليكون هذا البحث هاديا لمواطنيه لمعرفة الحقائق المتعلقة بوطهم ، وسط التيارات العديدة والمتعارضة من أقوال القصاص وغيرهم من العلماء الذين انتشروا فى المساجد والمحافل .

ويعتبر ابن عبد الحكم بذلك من طليعة المجددين فى كتابة التاريخ من أبناء القرن الثالث الهجرى ، إذ جمع بين طريقة الإسناد الشائعة فى المنهج العام لدى مؤرخى هذا القرن ، ولكن خالفهم من حيث موضوع الدراسة ، وتبويب مادته العلمية كذلك . أما من حيث الموضوع فيعتبر كتاب ابن عبد الحكم تسجيل لنمو القومية العربية فى مصر وشمال إفريقية ، وكيف كانت مصر محور نشاط الأصول الأولى لهذه القومية ،والينبوع الصافى الذى تولى تغذيتها بأسباب البقاء والازدهار ، والحارس الأمين كذلك على سلامتها ودعامة أوتادها .

ثم ان ابن عبد الحكم أضاف فنا جديداً فى التاريخ لم يسبقه إليه أي مؤرخ آخر من معاصريه ، وهو فن « الخطط » ، ويقصد به تاريخ الأمصار ، أى المدن ، وبيان ما لها من أثر فى بناء الحضارة العربية ونشر معالمها ومظاهرها على اختلاف ألوانها فيما جاورها من أرجاء . واعتمد ابن عبد الحكم فى معالجته لهذا الموضوع الجديد على مشاهداته للأمصار فى وطنه بمصر ، وأهمها الفسطاط ، التى غدت فى سرعة ملحوظة مركزا هاما من مراكز العمران العربى ، والنشاط العلمى

الاقتصادى للحياة العربية الناشئة فى الديار المصرية ، وجاراتها من بلاد شمال إفريقيا كذلك .

وابتكر ابن عبد الحكم طريقة جديدة فى معالجة المادة التاريخية التى تناولها بالذكر فى مؤلفه ، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تدوين التاريخ القومى العربى ، وتوضيح جوانبه العديدة : إذ قسم موضوعه إلى سبعة أقسام ، وأدرج تحت كل قسم منها المادة الخاصة بتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أن وصل إلى سنة ٢٤٦ هـ، أى قبل وفاته بعشر سنين . وكان المنهج الذى اتبعه ابن عبد الحكم طوال الأقسام السبعة التى وضعها لكتابه هو ربط مواضيعها بالتاريخ العربى سواء قبل الإسلام أو بعده، بحيث يلمس القارىء صورة واضحة عن مكانة مصر فى التاريخ القومى العربى . فذكر فى القسم الأول فضائل مصر وتاريخها القديم ، على ضوء القصص الذى رواه القدامى والمعاصرون له من الشخصيات العربية . ثم انتقل إلى القسم الثانى الذى عالج فيه فتح العرب لمصر . أما القسم الثالث فاقتصر على الخطط التى شيدها العرب فى مصر ، وتناول فى القسم الرابع الإدارة العربية فى مصر على عهد عمرو بن العاص ، وخلفه ابن أبى سرح ، وكيف أن مصر صارت على عهدهما قاعدة لنشر الإسلام والعروبة فى شمال إفريقيا والأندلس وبلاد النوبة ، وهو الموضوع الذى شرحه فى القسم الخامس . ثم سرد ابن عبد الحكم فى القسم السادس أسماء قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ , وفى القسم السابع والأخير روى الأحاديث التى حفظها الصحابة الذين جاءوا إلى مصر ، وكان عددهم اثنين وخمسين صحابياً .

الفصل الخامس

مصر القديمة فى القصص التاريخى

فضائل مصر :

نظر المؤرخ ابن عبد الحكم إلى تاريخ وطنه مصر من زاوية جديدة لم يسبقه إليها أحد من معاصريه ، وهى ربط حاضر مصر المشرق فى ظل العروبة والإسلام بماضى هذه البلاد المجيد قبل الإسلام . لقد طالعت أعين ابن عبد الحكم ومعاصريه من أبناء الجيل العربى الناشىء ، مصر المحبوبة بآثارها العظيمة التى غالبت الزمن ، ونيلها الخالد الذى يتدفق كل عام بين القرى حاملا إليها الخير والبركات ، وذكرها الطيب الذى جاء فى القرآن الكريم ، ورددته ألسنتهم مراراً وتكراراً كل يوم فى الصباح والمساء . وأقدم ابن عبد الحكم على معالجة تاريخ مصر القديم وفق منهج يستهدف بيان ما اختص به وطنه من مركز ممتاز بين بلاد العالم القديم ، وما قدمه وطنه كذلك من خدمات جليلة للحضارة الإنسانية .

ولم تكن مهمة ابن عبد الحكم فى سرد هذه المرحلة الهامة من تاريخ مصر أمراً سهلا أو هيناً ، وإنما كان عملا شاقا وعسيراً ، وذلك

بسبب افتقار الباحثين فى التاريخ القديم إلى الوسائل المطلوبة ، من حيث الخبرة بالكشوف واللغة الهيروغليفية ، وهى أمور لم يصل العلم إلى كشف أسرارها إلا فى مطالع العصر الحديث . ولذا لم يكن عجباً أن يلتمس هذا المؤرخ الوطنى سبيله إلى دراسة هذه الحقبة الخالدة من تاريخ مصر عن طريق القصص التى رددتها شفاه المعاصرين له ، والتى امتلأت بها مجالسهم الخاصة والعامة . ولا ينتقص من قيمة هذه المحاولة أن القصص التى سردها ابن عبد الحكم حفلت بالخيال الواسع ، أو لأنها ابتعدت عن منهج البحث الذى نعرفه فى وقتنا الحاضر. إذ يكفى هذا المؤرخ فخراً أنه نجح فى إثارة غريزة حب الاستطلاع عند مواطنيه للبحث فى تاريخ وطنهم القديم ، وتلمس الروابط القيمة بين حاضرهم إذ ذاك وماضيهم التليد .

وفى نفس الوقت أجاد ابن عبد الحكم عرض أخبار مصر القديمة، حسبما جاءت فى القصص التاريخى بحيث صارت مدخلا طيبا لتاريخ مصر العربية ، وذلك بطريقة جعلت أن ليس فى الإمكان أحسن مما كان . وتجلت براعة هذا المؤرخ فى تلك السبيل حين استهل عرضه لأحداث مصر القديمة بأقوال للرسول الكريم تبين فضائل مصر ، وما اختصت به من مركز ممتاز وسط مجريات التاريخ العالمى القديم . فروى ابن عبد الحكم وصية للرسول الكريم ، يهيب فيها الصحابة بأهل مصر خيرا ، إذ قال (ص) لهم : إذا افتتحتم مصر فاستوصوا

بالقبط خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » . ولما استفسر نفر من الصحابة عن المقصود بأن لأهل مصر رحماً ، قيل لهم إن أم أسماعيل عليه السلام منهم . والمعروف أن سيدنا ابراهيم تزوج من أهل مصر ، وهى السيدة هاجر ، التى ولدت له اسماعيل عليه السلام ، وهو أبو العرب جميعا .

وأضاف ابن الحكم شرحا لوصية الرسول الكريم بأهل مصر ، بأن روى أيضا عدة أقوال مأثورة توضح مكانة وطنه فى أحداث التاريخ القديم . فذكر أن القصاص فى مصر قالوا : صاهر إلى أهل مصر من الأنبياء صلوات الله عليهم ثلاثة : ابراهيم خليل الرحمن — عليه السلام - الذى تزوج هاجر ، وكانت من سكان قرية اسمها « ياق » بالقرب من أم دنين « التى يقوم مكانها الآن المنطقة الممتدة من حديقة الازبكية إلى جامع أولاد عنان . وتزوج كذلك يوسف عليه السلام بنت صاحب عين شمس ، وأخيرا رسول الله (ص) تزوج مارية القبطية . وصار لأهل مصر بالتالى صلة نسب وثيقة بالعرب قبل فتحهم لديارهم ، وغدت تلك الصلة موضع اعتزاز الجيل العربى الناشىء فى مصر ، ومحل تقديرهم أيضا .

وانتقل ابن عبد الحكم من ذكر وصية رسول الله (ص) بأهل مصر إلى عرض نبذة عن الجغرافية التاريخية لمصر ، وذلك نقلا عن كبار الصحابة وتابعيهم . فأشاد أولئك الأتقياء بما تمتعت به مصر من حقول نضرة ومياه وفيرة ، تصل الى كل أرجائها ، ومن ذلك قولهم :

«من أراد أن ينظر الى شبه الجنة فلينظر الى مصر اذا أزهرت» . ثم إنهم أعجبوا بدقة وسائل الرى ، وكثرة الجسور والقنوات المقامة لضبط المياه وتصريفها ، وتعدد الفروع المنبثقة من مجرى النيل الرئيسى ، وانتشارها كالشبكة الهائلة وسط الحقول الخضراء ، وتبعث فيها البهاء والحياة .

وكشف ابن عبد الحكم بهذا العرض السالف الذكر عن حقيقة هامة ، وهى اهتمام أهل مصر على مر العصور بطرق الرى ، وشق القنوات الكبرى والصغرى التى توصل المياه إلى سائر أرجاء البلاد ، وتساعد على زراعة حقولها ، وتحويلها الى مصادر غنية للرزق والثراء . ثم أن هذا المؤرخ الفاحص عدد أسماء الفروع الكبرى التى انتشرت فى مصر القديمة تحمل إلى مدنها المياه ، وتغدق على أرضها الخصوبة والنماء . وكانت تنتهى إذ ذاك ، أو تصب فى البحر المتوسط . ومما يجدر بالذكر أن الترع والرياحات الكبرى التى تغطى أرض الدلتا فى عصرنا الحاضر تسير تقريبا فى نفس المجريات التى تدفقت فيها مياه الفروع القديمة للنيل التى ذكرها ابن عبد الحكم .

وهناك حقيقة تاريخية أخرى أثبتها ابن عبد الحكم ، ألا وهى قيام السلطات المصرية بشق القنوات اللازمة للحياة الزراعية للبلاد على نفقتها ، دون أن تحمّل أهالى البلاد أية ضرائب إضافية . فذكر أن أحد الفراعنة أوصى وزراءه بالعناية بالترع ، وحفر مجرياتها بحيث

تصل الى أقصى القرى ، وذلك دون أخذ أموال من الأهالى ، لأن العمل الذى يقومون به يعتبر من الأعمال العامة التى تختص بها الدولة .

أبناء حام فى مصر :

انتقل ابن عبد الحكم من بيان فضائل مصر إلى دراسة أصل سكانها القدامى . ونظراً لافتقاره إذ ذاك إلى وسائل الدراسة التى نعرفها اليوم باسم دراسات علم السلالات ، لجأ إلى القصص التاريخى ، محاولا ربط أهل مصر بالشجرة الكبرى التى تفرعت عنها سائر السلالات البشرية. ولكن هذا المؤرخ المجتهد اتبع طريقة تدل على مقدرته الفائقة فى استخلاص الحقائق المتعلقة بتاريخ وطنه من بين القصص الخيالى الذى يدور حول التاريخ العام للجنس البشرى . فأوضح ابن عبد الحكم أن سكان مصر القدامى ينتسبون إلى أحد أحفاد نوح ، وهو « مصر بن بيصر بن حام » ، الذى اصطحب إخوته إلى مصر ، وأن تلك البلاد سميت بهذا الإسم نسبة إليه .

وتجلت فى هذه الصفحات الخاصة بتاريخ مصر القديم اعتزاز ابن عبد الحكم بهذه الحقبة الغابرة من وطنه، إذ روى أن نوحا ودع حفيده، وهو فى طريقه إلى مصر بالبركات ، قائلا : اللهم بارك فيه وفى ذريته ، وأسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد ، وغوث العباد » . ثم ربط ابن عبد الحكم نزول أحفاد نوح فى مصر بمدنها الكبرى ، محاولا

بذلك تعليل أسمائها ، ومشيدا بالتالى بما لها من ماض تليد . إذ كانت هذه المدن المصرية تطالع أبصار أبناء الجيل العربى الناشئ ، على عهد ابن عبد الحكم ، ويتردد فى أسماعهم مجدها الغابر ، وما قدمته من خدمات جليلة فى بناء أقدم حضارة إنسانية زاهرة .

وإذا كان ابن عبد الحكم قد اعتمد على الأساطير للتخلص من شرح المظاهر التى تتعلق بتاريخ مصر القديم ، والتى صعب عليه كشف أصولها ، فإنه نجح فى إثارة حوافز المعاصرين له ، ومن تبعهم بإحسان ، إلى دراسة تاريخ وطنهم القديم ، ووضع بالتالى اللبنة الأولى فى صرح دراسة التاريخ المصرى القديم ، حسب إمكانياته المتواضعة ، فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى .

هاجر أم العرب

وتجلت مقدرة ابن عبد الحكم على استخلاص الحقائق التاريخية من القصص العديدة فى دراساته التى حاول بها إثبات صلة القربى بين المصريين القدامى والعرب من سكان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام . فعرض قصة زيارة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى مصر ، وزواجه من إحدى بناتها وهى هاجر ، لأن زوجته الأولى وهى سارة لم تكن تنجب إذ ذاك . ثم دبت الغيرة فى نفس ساره بعد أن ولدت هاجر المصرية سيدنا إسماعيل ، مما حمل سيدنا إبراهيم على الذهاب بهما إلى مكة .

واستطرد ابن عبد الحكم فى عرض هذه القصة ،شارحاً تفجر بئر زمزم ، ثم مجىء قبيلة جرهم العربية إلى مكة ، وزواج إسماعيل منها ، وأنه أنجب اثنى عشر ولدا ، هم آباء العرب المستعربة ، أى عرب الحجاز . وبذلك نجح هذا المؤرخ البارع فى توجيه أنظار المعاصرين له إلى أصولهم العربية ، مبيناً لهم أن جذورها تمتد إلى أعماق بعيدة فى التاريخ ، وأنها تستمد قوتها من أواصر القربى الوثيقة العرى . ودَّعم ابن عبد الحكم بحثه القصير فى هذا الميدان الطريف من علم السلالات بقول لأبى هريرة عن هاجر المصرية ، دأب على ترديده للعرب أنفسهم ، حيث قال لهم عنها : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء — يريد العرب .

الآثار المصرية

وأشاد ابن عبد الحكم بآثار مصر القديمة التى طالعت أبصار مواطنيه ، تحكى لهم أمجاد هذا القطر العريق وتكشف عن دوره الخالد فى خدمة الحضارة الإنسانية . إذ انتشرت تلك الآثار فى طول البلاد وعرضها، كما تعددت أغراضها ومعانيها . فتحدث ابن عبد الحكم عن سور مصر العظيم ، الذى بناه سيزو ستريس ، وسماه « جدار العجوز » ، حيث نسب بناءه إلى إحدى ملكات مصر . وكان هذا الجدار يبدأ من العريش ، ويتجه إلى القلزم ، ثم يسير بحذاء شاطىء النيل الشرقى إلى الجنوب حتى منطقة الجنادل . وأشار ابن عبد الحكم

إلى أخبار هذا السور قائلا : ان الملكة بنت « جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر كلها ، المزارع والمدائن والقرى ، وجعلت دونه خليجا فيه الماء ، وأقامت القناطر والترع ، وجعلت فيه محارس ومسالح ، على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة ، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل ، وجعلت فى كل محرس رجالا ، وأجرت عليهم الأرزاق ، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس ، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بالأجراس ، فأتاهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة فنظروا فى ذلك ، فمنعت بذلك مصر ممن أرادها » .

وانتقل ابن عبد الحكم بعد ذلك إلى الحديث عن الآثار الأخرى ، من المقابر والمعابد والهيا كل ، وهى التى نعتها جميعا باسم « البرابى » ، وأشار إلى أن بعضها خصص للعبادة ، والبعض الآخر لحماية البلاد . ولم يستطع ابن عبد الحكم تعليل وجود هذه « البرابى » ، أو يقف على تفسير لأغراضها ، ومن ذلك ما قاله فى الأهرامات نفسها ، وهى من أعظم الآثار التى استرعت نظر العرب ، إذ قال :

« ولم أجد عند أهل المعرفة من أهل مصر فى الأهرام خبراً يثبت ، وفى ذلك يقول الشاعر :

حسرت عقول أولى النهى الأهرام	واستصغرت لعظيمها الأحلام
ملس مبنقـــة البناء شواهق	قصرت لغـال دونهن سهام
لم أدر حين كبا التفكر دونها	واستوهمت لعجيبها الأوهام
أقبور أملاك الأعاجم هن أم	طلسم زمل كن أم أعلام

الفصل السادس
طلائع الفجر

كرة الملك :

انتقل ابن عبد الحكم انتقالا موفقا من تاريخ مصر القديمة إلى ذكر تاريخها فى ظل العروبة والإسلام . إذ جعل همزة الوصل بين هاتين المرحلتين حدثين عظيمين ، كشف كل منهما عن إدراك العرب لأهمية مصر ، وخبرتهم الواسعة بشئونها أيضاً . أما الحدث الأول فهو مجىء عمرو بن العاص إلى مصر قبل ظهور الإسلام، والحدث الثانى هو أن الرسول الكريم اختار مصر لتكون على رأس قائمة البلاد التى بعث إلى حكامها بكتبه ، يدعوهم فيها إلى الإسلام .

واعتمد ابن عبد الحكم فى سرد وقائع الحدث الأول على القصص التاريخى ، الذى شاع فى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، والذى خلّد ذكرى العلاقات التجارية القديمة التى قامت بين مصر وبلاد العرب قبل الاسلام . ولكن هذا المؤرخ خطا فى عرضه لأحداث مجىء عمرو ابن العاص إلى مصر خطوة هامة ، مزج فيها بين الحقائق التاريخية السليمة ، وخيال القصاص ، الذى يستهدف جذب انتباه الناس بأية

صورة من الصور . أما عن الحقائق التاريخية فأثبتها ابن عبد الحكم حين ذكر أن عمرو بن العاص حضر إلى فلسطين ومعه نفر من أصدقائه للمتاجرة بها . والمعروف أن فلسطين أو جنوب الشام كان منتهى طريق رحلة الصيف ، التى دأبت قوافل مكة على القيام بها مرة كل سنة للمتاجرة ، وحمل سلع الشرق إلى الغرب .

وفى نفس الوقت كان تجار مصر يلتقون بتجار العرب فى أرض فلسطين ، فضلا عن أن شخصيات كثيرة من المصريين ذهبت إلى تلك البلاد قبل الإسلام لزيارة أماكنها المقدسة . وهنا تفتقت موهبة ابن عبد الحكم فى ميدان القصص ، إذ استغل مقابلة أحد كبار المصريين لعمرو بن العاص ، ونسج حولها مجىء عمرو إلى مصر . إذ حدث أن ضلّ هذا المصرى الطريق وهو فى زيارته لفلسطين ، والتقى بعمرو مصادفة وهو يرعى إبله ، ترويحا لها من عناء السفر . فسقى عمرو هذا المصرى ، كما أنقذه من حية كانت تريد لثغه وهو نائم بعد الاجهاد الشاق الذى لقيه من للتجوال والتخبط فى الطرقات .

وتتجلى براعة ابن عبد الحكم فى سبك هـــذه القصة فى إظهاره فضل عمرو بن العاص على المصرى مرتين ، مما دعا الأخير إلى أن يطلب من عمرو الحضور معه إلى مصر ليجزيه على ماقدم له من خير ، ومبينا له أنه سوف يشاهد بلدا خصبا وافر الثراء . وهكذا نجح ابن عبد الحكم فى جذب انتباه قارىء قصة مجىء عمرو إلى مصر ، حيث

انتقل بعد ذلك فى سهولة ويسر إلى بيان مشاهدات عمرو فى مصر ، وكيف أنه وقف أثناء هذه الزيارة على معالم مصر وطرقها ، كما عرف الكثير عن أحوالها وأخبارها ، وهى أمور استهدف ابن عبد الحكم بطريق غير مباشر ، أن يكشف بها عن أهلية عمرو بن العاص فيما بعد لقيادة الجيوش العربية الاسلامية التى فتحت مصر .

وبلغت مواهب ابن عبد الحكم فى حسن السرد أقصاها حين نسب إلى عمرو بن العاص وهو فى زيارته لمصر حادثة أخرى ، أشبه بالنبوءات التى ترشح المرء لعظيم الأمور ، وجليل الأعمال . إذ حدث أن شاهد عمرو بالاسكندرية حفلا لأبناء علية القوم يلعبون فيه بكرة ، يتقاذفونها فيما بينهم ، بحيث إذا وقعت هذه الكرة فى حجر أحدهم استبشر بأنه سيكون حاكم مصر ومن أصحاب السلطة العليا فيها . وبينما هم فى حلبة اللعب قذف أحدهم بالكرة ، التى وقعت فى حجر عمرو بن العاص . وأثار ذلك عجب اللاعبين الذين قالوا : « ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟ ، هذا ما لا يكون أبدا » . ولكن ابن عبد الحكم اتخذ من هذا القول نقطة يقف عندها فى سرد قصته ، ليترك القارىء نهبا لحب الاستطلاع ، ويدفعه الشوق إلى معرفة نتائج هذه النبوءة ، وهو ما سيكون موضوع تولى عمرو بن العاص للجيوش العربية التى توجهت لفتح مصر ، وهو الموضوع الذى عالجه ابن عبد الحكم فى قوة وإتقان .

كتاب الرسول الكريم إلى المقوقس :

وبدأ ابن عبدالحكم يتخلص رويداً رويداً من الاعتماد على القصص التاريخي إلى جمع الأخبار التاريخية السليمة، وجعلها مدخلا لدراساته القيمة عن فتح العرب لمصر، وانتشار الإسلام بها . فاتخذ من الكتب التي بعث بها الرسول الكريم إلى حكام البلاد الكبرى ، ويدعوهم فيها إلى الإسلام ، نقطة لتحرره من خيال القصاص، وبداية لانطلاقه في البحث التاريخي الخالص . وهنا أثبت ابن عبدالحكم موهبة تاريخية فريدة ، جعلته حريا بأن يلقب بأستاذ مؤرخي مصر الاسلامية . إذ سرد في إيجاز كتب الرسول الكريم إلى سائر حكام البلاد الكبرى مثل فارس ودولة الروم ، على حين خص كتابه الكريم إلى المقوقس في مصر بالتفصيل ،وشرح الظروف والملابسات التي أحاطت بوصول مبعوث النبي الكريم إلى مصر .

وتجلى في عرض ابن عبد الحكم لموضوع كتاب الرسول إلى المقوقس قدرته على سرد الوقائع التي تعلي من شأن وطنه ، وتظهر مفاخره في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه في صدر الاسلام ، إذ أشار إلى الهدية التي بعث بها المقوقس إلى الرسول الكريم ، وكيف أنها اشتملت فيما اشتملت عليه على عسل من إنتاج بنها ، وثياب مما اشتهرت بها مصر ، والتي عرفت باسم « القباطي » . إذ امتدح الرسول الكريم عسل بنها ، كما أبدى رغبته لصحبه ، أن يكفن بعد موته في « ثياب مصر » ، التي ظل يحتفظ بها .

ثم أكد ابن عبد الحكم فى دراساته الموضوع السالف الذكر ، حقيقة أخرى هامة ، وهى زواج الرسول الكريم من مارية ، وهى إحدى بنات مصر ، من قرية حفن ، كانت تابعة لمقاطعة اسمها أنصنا وموقعها الآن مدينة النصلة بمركز ملوى فى محافظة أسيوط ، إذ استهدف ابن عبد الحكم بذكر هذا الزواج بيان قوة الروابط التى أخذت تنمو بين مصر وبلاد العرب فى صدر الاسلام ، وأن العرب حين وفدوا لفتح مصر ، وجدوا بها أصهارا وأرحاما ، وأنهم امتزجوا بأهلها فى سرعة مدهشة ، كتبت لمصر جيلا جديدا وعهدا جديدا ، قوامه العروبة والاسلام .

الفصل السابع

دراسة ابن عبد الحكم

للفتح العربى لمصر

يكشف الفصل الذى عقده ابن عبد الحكم عن فتح العرب لمصر عن كثير من المواهب التى تحلى بها هذا المؤرخ العظيم ، كما يوضح أسلوبه فى معالجة الأحداث الهامة التى شاهدتها مصر فى هذه المرحلة الانتقالية من تاريخها الطويل . وأول هذه المواهب هو توفيقه فى اختيار بداية طيبة لدراسة الفتح العربى لمصر ، اذ اتخذ من شخصية عمرو بن العاص قطب الرحا فى المفاوضات التى دارت من أجل إعداد الجيوش للمسير إلى مصر ، والقضاء على سلطان الروم بها .

وأجاد ابن عبد الحكم فى تصوير هذه البداية ، موضحا الدور الهام الذى قام به عمرو بن العاص فى إقناع الخليفة عمر بن الخطاب بضرورة فتح مصر . إذ قارن هذا المؤرخ بين دراية عمرو بن العاص بأحوال مصر ، وإدراكه لأهميتها بالنسبة للفتوح العربية بالشام ، وبين افتقار الخليفة ومن معه من كبار رجال الدولة للمعرفة الخاصة بهذا القطر .

وتجلت هذه المقارنة الطريفة فى مؤتمر الجابية الحربى الذى عقد بالشام، وحضره الخليفة عمر وكبار قادة الجيوش . فقد تولى عمرو بن العاص بيان أهمية مصر فى إقناع الخليفة بأسلوب الخبير بشئونها ، وأهلها ومواردها ، على حين أبدى الخليفة عمر مخاوفه من الإقدام على أى عمل حربى فى هذا القطر الكبير . وأخيرا نجح عمرو بقوة حججه ، وما أظهره من خبرة واسعة فى الحصول على إذن الخليفة بالمسير إلى مصر .

ولم يقف ابن عبد الحكم عند هذا العرض الجيد لما حدث فى مؤتمر الجابية الحربى ، وإنما كشف مرة أخرى عن تخوف كبار أهل المدينة بالحجاز من الإقدام على فتح مصر ، وعن مقدرة عمرو بن العاص فى نفس الوقت فى التغلب على الصعاب التى واجهته من جراء هذه الأفكار التى سادت مجتمع الحجاز . ذلك أن الخليفة حين عاد إلى المدينة عرض ما دار بينه وبين عمرو على مستشاريه من أهلها ، ومن بينهم عثمان بن عفان ، الذى حذر الخليفة مغبة هذا الأمر ، وذكر له أن عمراً واسع الطموح ، وفى حملته على مصر خطر على الجيوش الإسلامية . واضطر الخليفة أمام رأى عثمان بن عفان أن يكتب إلى عمرو بن العاص كتابا ، يأمره فيه بالعودة إلى الشام ، إذا لم يكن قد دخل أرض مصر، أما إذا كانت جيوشه قد دخلت أرض تلك البلاد ، فعليه أن يتابع حملته على بركة الله .

وانتقل ابن عبد الحكم من هذا الوصف المثير إلى بيان دهاء عمرو

ابن العاص ، وقدرته على التخلص من المأزق الذى كاد يقع فيه بسبب خطاب الخليفة إليه . ذلك أن رسول الخليفة أدرك الجيش العربى عند رفح ، وهى بالقرب من العريش . وسادت المخاوف عمرا من محتويات كتاب الخليفة ، ورأى أن يبطىء فى استلامه حتى تجاوز رفح ، ونزل فى قرية فيما بينها وبين العريش ، علم أنها من أرض مصر . وعندئذ طلب الكتاب وقرأه على جنده ، الذين وقفوا بالتالى على رأى الخليفة ، وفى نفس الوقت عرفوا أنهم صاروا بأرض مصر ، وليس أمامهم إلا مواصلة الزحف . ودعم ابن عبد الحكم وصفه لهذا الدهاء الذى أبداه عمرا إزاء كتاب الخليفة بذكر وصف جثمانى له ، يكشف عما يتمتع به صاحبه من خصال الفطنة واللباقة . فكان عمرو بن العاص قصيرا ، عظيم الهامة ، ناتىء الجبهة ، واسع الفم ، عظيم اللحية ، عريض مابين المنكبين ، عظيم الكفين والقدمين ، وهى كلها أمور لا يتصف بها إلا شخص على مقدرة عالية من الدهاء ، والنظر الثاقب فى الأحداث ، على نحو ما تذكره دراسات علم النفس فى عصرنا الحاضر . اذ تربط بعض الدراسات الحديثة فى ميدان علم النفس بين الصفات الجثمانية وبين المواهب التى يتحلى بها أصحابها ، على نحو لا يخرج عما ذكره ابن عبد الحكم عن شخصية عمرو بن العاص ودهائه .

وتابع ابن عبد الحكم عرض الزحف الذى قام به عمرو بن العاص من بعد العريش قاصداً فتح مصر كلها ، وذلك فى أسلوب علمى يدعو إلى

الإعجاب والتقدير . إذ لم يقف هذا المؤرخ عند مجرد سرد الحقائق وإنما ألقى عليها أضواء جاءت وليدة الدراسة المستفيضة والجهد العظيم. فأوضح ابن عبد الحكم — فى صورة لم يسبقه إليها غيره من المؤرخين — أن فتح مصر لم يكن الا معارك بين العرب والروم ، وأن المصريين وقفوا منذ اللحظة الأولى موقف المرحب بالجيوش العربية ، ونظروا إليها نظرة المحرر لهم من ربقة الروم واستعمارهم . وتكشف هذه الحقيقة التى انفرد بها ابن عبد الحكم عن دراساته الواسعة لتاريخ مصر قبيل فتح العرب لهـــا ، وهى المرحلة التى اتسمت باضطهاد الروم للمصريين بسبب اختلافهم معهم فى المذهب الدينى، وكيف انتهى الأمر بهرب بنيامين ، أسقف الإسكندرية إلى الصحراء ، فرارا من بطش سلطان الروم ، وليتابع من مخبأه النضال ضـــد أولئك المستعمرين الطغاة .

وأجاد ابن عبد الحكم فى الربط بين هذا الأسقف وبين أحداث الفتح العربى لمصر ، وهو الأمر الذى يوضح منهجه العلمى فى معالجة أسباب ترحيب المصريين بالعرب المسلمين. إذ ما كاد الأسقف بنيامين يعلم بدخول عمرو بن العاص أرض مصر ، حتى كتب لأهل البلاد يبشرهم بأن عهد طغيان الروم قد انتهى ، وأن عصرا جديدا من الحرية أخذ يشرق على البلاد ، ويطلب منهم فى نفس الوقت باعتباره زعيمهم ورئيسهم الأعلى ، تقديم كل معونة لعمرو بن العاص. وبذلك انفردت

دراسة ابن عبد الحكم للفتح العربى لمصر بمعلومات جديدة لم يسبقه إليها أحد ، وصارت على مر العصور ينبوعا يستخدمه مؤرخو مصر إلى ما يرشدهم إلى أمثل السبل لدراسة تاريخ بلادهم ، ويزودهم بالأسس السليمة لأبحاثهم ونشاطهم العلمى .

وإلى جانب المنهج العلمى السليم الذى تجلى فى دراسة ابن عبد الحكم اتصف أسلوبه بالقوة والبعد عما يجلب السأم أو يدعو إلى الملل . ذلك أنه مزج التاريخ بالجغرافيا ، شارحا أثر عوامل البيئة فى تحديد زحف عمرو بن العاص ، وبيان الطرق التى سلكها ، وهى أمور كتبت للقائد العربى الظفر والنصر . فالطريق الذى سلكه عمرو بن العاص من العريش إلى داخل البلاد ، هو الطريق الوحيد الذى رسمته العوامل الجغرافية لربط مصر بالشام ، وتكثر به المعاقل والمدن الاستراتيجية ، التى تكفل لمن يستولى عليها تحقيق خططه الحربية . ولذا ما كاد عمرو بن العاص يستولى على الفرما — وكانت على ساحل البحر الأبيض ، شرق بور سعيد الحالية — حتى صار بيده مفتاح مصر من الشرق ، لإشراف الفرما على الطريق القادم من الصحراء ، والممتد إلى نهر النيل .

وأوضح ابن عبد الحكم خبرة القائد العربى بجغرافية مصر وأنه وضع خطته الحربية ، على هدى العوامل الجغرافية ، لانتزاع المعاقل الكبرى فى البلاد من أيدى الروم . فجعل عمرو بن العاص وجهته

بعد الفرما الزحف على حصن بابليون ، وكانت قلعة بناها الرومان على الضفة الشرقية للنيل بين مصر السفلى ومصر العليا ، وصارت مركزا هاما يساعدهم على السيطرة على البلاد . وهنا عمد ابن عبد الحكم إلى سرد تفاصيل زحف عمرو بن العاص ، فى شيء من الدقة ، وذلك لاعتماده على دراسة البيئة فى تحديد حركات هذا القائد العربى . اذ اعترض سير الجيش العربى حامية للروم أقامت إلى شمال حصن بابليون فى مكان إسمه « أم دنين » ، على الشاطىء الشرقى للنيل ، وموضعها الآن الأزبكية بالقاهرة . ولقى عمرو صعوبة فى الاستيلاء على هذا المكان ، نظرا لموقعة الحصين ، وبذل جهودا جبارة حتى سيطر عليه ، واتجه مرة أخرى إلى حصن بابليون .

وجاء وصف ابن عبد الحكم للحصار الذى فرضه عمرو بن العاص على حصن بابليون صورة رائعة ، تنبض بالحياة لاعتماده مرة أخرى على مزج التاريخ بالجغرافية . إذ جاء الحصار لهذا الحصن مع فيضان النيل ، وكانت إحدى واجهات الحصن تطل مباشرة على مياه النيل ، قبالة جزيرة الروضة . وقد أيدت الأبحاث الحديثة صدق هذا الوصف الذى أورده ابن عبد الحكم ، مما جعل لدراسته فى هذا الموضوع أهمية كبرى للباحث فى تاريخ القاهرة وتطورها . فكان مجرى النيل الذى يعبره الآن كوبرى الملك الصالح يتسع شرقاً إلى أبواب حصن بابليون مما يزيد فى منعته وقوته . وفى نفس الوقت قامت أمام هذه

الواجهة البحرية للحصن جزيرة الروضة ، وبينهما جسر من المراكب بحيث يكفل للحامية المقيمة فى الداخل الاتصال بالخارج فيما لو اشتد عليها الحصار من الجانب البرى للحصن .

واستهدف ابن عبد الحكم من ذكر هذا الوصف الجغرافى لحصن بابليون شرح الأسباب التى دعت إلى طول حصار العرب له ، وبيان المجهودات التى بذلها القادة العرب من أجل السيطرة عليه . ومن أجل ذلك اضطر الخليفة عمر بن الخطاب أن يمد عمرو بن العاص بجيش قوامه أربعة آلاف رجل ، على كل ألف منهم قائد شجاعته تعادل شجاعة جنده ، وكانوا هم :

الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد . وبوصول تلك الامتدادات زادت حماسة الجند العرب ، وتابعوا حصار بابليون دون أن يأبهوا بمنعته وقوته .

ودوّن ابن عبد الحكم أحداث حصار العرب لحصن بابليون فى تفصيل ممتع ، يشهد باطلاعه الواسع ، وحرصه على تزويد القارىء بكل ما دار فى المفاوضات بين العرب والروم ، وترك بالتالى صورة واضحة المعالم للعهد الجديد الذى أخذ يطل على وطنه مصر ، وما صاحب هذا العهد من انتصار المبادىء القويمة التى حملها العرب معهم على مفاسد الروم ونظمهم البالية . ذلك أن المقوقس حاكم مصر

من قبل الروم ، وكان مقيماً فى حصن بابليون ، حين أحس إصرار العرب على متابعة الحصار ، رغب فى مفاوضتهم ، وإغرائهم على ترك البلاد مقابل دفع أموال كثيرة إليهم وإلى قادتهم .

وتابع ابن عبد الحكم سرد المفاوضات التى دارت بين الطرفين ، ذاكراً أقوال كل وفد من العرب والروم ، مما يعد جزءاً من التاريخ الحضارى للعرب ، وبيان خصالهم فى هذه المرحلة المبكرة من أداء رسالتهم الإسلامية . فعندما ذهب رسل الروم إلى عمرو بن العاص تطلب منه إعداد وفد لمقابلة المقوقس ، أبقى هذا القائد العربى رسل الروم عنده مدة من الزمن ، أطلعهم فيها على بساطة الجند العرب وحسن نظامهم فى ظل الإسلام . وعندما عاد سفراء الروم إلى المقوقس ، أخبروه بما شاهدوه من ديمقراطية العرب ، وأنه لا فرق بين رفيعهم ووضيعهم ، وأنه إذا حضرت الصلاة ، لا يتخلف عنها أحد ، وأنهم قوم لا يهابون الموت .

ثم أتبع ابن عبد الحكم هذا العرض الطريف بذكر حقيقة تاريخية هامة ، توضح احترام العرب للمساواة بين الأجناس ، وحرصهم على عدم التفرقة بين شخص وآخر للونه أو جنسه . إذ جعل عمرو ابن العاص على رأس الوفد الذى بعث به لمفاوضة المقوقس عبادة بن الصامت ، وكان أسود اللون ، مما أفزع حاكم الروم ، ودفعه على طلب تنحى عبادة ، وأن يتقدم لمفاوضته شخص آخر . وهنا أشاد

ابن عبد الحكم برد وفد العرب على طلب المقوقس ، والذى جاء مقارنة قيمة بين عهد الروم القائم على الظلم والتفرقة ، وبين عهد العرب الذى يستند إلى العدل والمساواة . إذ أبى الوفد العربى الاستجابة لطلب المقوقس ، وأخبروه أن عبادة ، وإن كان أسود ، إلا أنه أفضلهم ، والمتكلم الرسمى باسمهم ،وأن دينهم لا يفرق بين أسود أو غير أسود ، والكل فى رحابه سواء ، لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى .

وبذلك تعتبر دراسة ابن عبد الحكم للمفاوضات بين العرب والروم فى مصر وثيقة هامة تفيد الباحث فى ميدان الدراسات الاجتماعية ، والتطور التاريخى للحضارة الإنسانية . إذ اضطر المقوقس إلى قبول مفاوضة عبادة ، مما يدل على أن عهد الغطرسة والتفرقة العنصرية قد ولّى وأفل نجمه ، وأن عهد الحرية الكاملة للانسان قد أشرق فى ظل الاسلام ورسالته . وكشف ابن عبد الحكم فى دراساته السالفة فى نفس هذا الموضوع الاجتماعى عن معنى « الجزية » باعتبارها نظاما هاما من النظم التى وضعها الاسلام للمجتمعات الانسانية . فقد ذكر المفاوضون العرب للروم أنهم يعرضون عليهم ثلاث خصال ، هى الدخول فى الاسلام ، أو دفع الجزية إذا رغبوا فى البقاء على دينهم ، وإذا رفضوا الخصلتين السالفتين فلا مناص من القتال فى سبيل نشر الاسلام .

وشرح ابن عبد الحكم الجزية شرحاً طيبا ، كما جاء على لسان

المفاوضين العرب ، مبينا أنها تجبى فى مقابل تولى المسلمين الدفاع عن غير المسلمين التابعين لهم ، وحماية أرواحهم وممتلكاتهم . وتظهر قوة العرض عند هذا المؤرخ فى وضوح المعانى التى صاغ بها أقوال الوفد العربى ، وصراحتها دون التجاء إلى الغموض أو اللبس . ورأى المقوقس أنه لا يملك وحده قبول هذا العرض من جانب العرب ، وطلب مهلة لينقل إلى إمبراطور الروم فى القسطنطينية نصوص المفاوضات ، وليتلقى منه التعليمات بشأنها . غير أن الموقف تطور إذ ذاك فى صالح العرب ، حيث انخفض النيل ، وأكملوا بالتالى حلقة الحصار حول الحصن ، وانتهى الأمر باقتحامه ، والاستيلاء عليه سنة ٢٠ هـ / ٦٤١م .

وأثارت مفاوضات العرب للروم ، ثم استيلاؤهم على الحصن آراء عديدة ، ظل الخلف يتناولها عن السلف حتى أيام ابن عبد الحكم فى القرن الثالث الهجرى . ودارت تلك الآراء حول هذا الموضوع ، هل فتحت مصر عنوة أم صلحاً ؟ . والمعروف أن النظم التى وضعها العرب للبلاد المفتوحة من حيث تحديد أوضاعها الاقتصادية قد تباينت فى ظل فتحها صلحا ، أى دون قتال ، أو عنوة ، أى بعد هزيمتها فى القتال . وهنا ظهرت مشكلة فتح مصر ، إذ المعروف أن أهلها رحبوا بالعرب وجيوشهم ، وقدموا لهم كل مساعدة ممكنة ، وساعدوهم على إحراز النصر ، وفى نفس الوقت حارب العرب فى مصر حروبا عديدة مريرة ضد الروم ، حتى تم لهم أخذ البلاد منهم عنوة . وجمع ابن عبد الحكم

الأقوال التى قيلت فى هذا الموضوع , وقسمها قسمين : الأول يحتوى على الآراء التى تبين أنها فتحت صلحا ، والثانى يذكر الآراء التى تؤكد فتحها عنوة ، ثم اكتفى بذلك دون أن يرجح رأيا على آخر .

ويبدو أن ابن عبد الحكم آثر الابتعاد عن الخوض فى هذا الجدل الذى اشتد فى القرن الثالث الهجرى ، أى على أيامه ، واكتفى بتجميع آراء المؤيدين للفتح صلحا ، وأولئك المنادين بأن الفتح كان عنوة . غير أنه عمد فى سياق عرضه لتاريخ مصر بعد استقرار العرب بها إلى ترديد الأحداث والمناسبات التى توضح أن مصر عوملت معاملة البلاد التى فتحت صلحا ، وأن السلطات العربية نظرت إلى أن القتال الذى دار من قبل كان بين العرب والروم ، وأن موقف المصريين ومساعدتهم للجيش العربى يسمح لهم بالتمتع بحقوق أصحاب البلاد المفتوحة صلحا .

وأشار ابن عبد الحكم إلى مساعدات المصريين للجيش العربى بعد استيلائه على حصن بابليون ، وزحفه إلى الاسكندرية ، وكانت عاصمة البلاد إذ ذاك . إذ بادر أهالى القرى والمدن التى مر بها الجند العرب إلى إمدادهم بالمؤن ، وتمهيد الطرق لهم ، وإصلاح الجسور التى خربها الروم أثناء تقهقرهم إلى الاسكندرية . وكان لهذه المساعدة أثرها فى سرعة زحف عمرو بن العاص ، ووصوله إلى الاسكندرية دون أن يخشى كائن الروم أو أية هجمات فجائية . ذلك أن بعض الفدائيين من

الروم حاولوا الخروج من الاسكندرية خلسة ، والانقضاض على نقط الحراسة العربية ، ولكنهم سرعان ما ارتدوا خاسرين لأنهم لم يلقوا أية مساعدات من الأهالى ، وأحسوا بالتالى بعجزهم عن إنزال الفوضى فى صفوف الجند العرب .

وعمد ابن عبد الحكم مرة أخرى إلى مزج الاحداث التاريخية بالمسرح الجغرافى للبلاد عند وصفه لحصار العرب للاسكندرية . إذ أوضح أن تلك المدينة تمتعت بحصون قوية متصلة الأطراف، تعلوها المجانيق الهائلة ، لصد الهجوم الذى يأتيها من الجانب البرى ، على حين يقف البحر من خلفها حارسا يدفع عنها أى عدوان بحرى . ولما كان الجيش العربى يفتقر إذ ذاك إلى السفن البحرية التى تعزز حركاته البرية فإن حصاره للاسكندرية طال ، حتى خشى الخليفة عمر بن الخطاب أن يكون السبب فى ذلك هو ركون الجند العرب إلى الدّعة ، أو أن حماستهم للقتال قد فترت . وبعث بكتاب إلى عمرو بن العاص يظهر فيه دهشته من إبطائه فى فتح الاسكندرية ، وحدد له بنفسه وقتا يبادر فيه بالهجوم على الاسكندرية والعمل على فتحها .

وبرر ابن عبد الحكم إبطاء الفتح بمنعة الاسكندرية ، ملتمسا الأعذار لعمرو بن العاص ، كما أوضح أن هرقل امبراطور الروم ، أخذ يستعد بنفسه للخروج على رأس امدادات هائلة لنجدة الاسكندرية . غير أن الموت فاجأه ، مما أدى إلى اضطراب الأمور فى دولة الروم ،

وانهيار الروح المعنوية بين جندها فى الاسكندرية ، واضطرارهم إلى قبول الصلح ، وتسليم المدينة إلى عمرو بن العاص. وعرض ابن عبد الحكم تسليم الاسكندرية ، وتلقى الخليفة عمر بن الخطاب لهذا النبأ فى أسلوب شائق ، يدل على قوته فى الربط بين الأحداث المختلفة ، وتجنيب القارىء التيه وسط الاستطراد أو الاعتماد على سرد الحقائق المجردة .

وأوضح ابن عبد الحكم نتيجة دراساته العميقة أن الروم عجزوا عن استرداد مصر بسبب قوة التضامن الذى ساد المصريين والعرب فى هذه المرحلة المبكرة من حياتهم الاجتماعية . إذ بادر أهل البلاد أنفسهم بإرسال رجاء إلى الخليفة عثمان بن عفان ليبعث إليهم بعمرو ابن العاص ، باعتباره خبيراً بأساليب الروم وطرق قتالهم. واستجابت الخلافة لهذا النداء المصرى ، وجاء عمرو بن العاص على عجل ، وتولى قيادة الجيوش فى مصر مرة أخرى .

ويعتبر الوصف الذى أورده ابن عبد الحكم للخطة التى رسمها عمرو بن العاص لقتال الروم صورة من التاريخ الحربى ، تفيد الباحث فى طرق الدفاع عن الديار المصرية . إذ آثر عمرو بن العاص التريث ، وعدم المبادرة بالهجوم على الروم فى الاسكندرية ، وظل ساكناً حتى أغراهم على الخروج من قاعدتهم فى مدينة الاسكندرية ، وانتشروا فى شمال الدلتا. وظنّ الروم أن الجو خلا لهم، وانطلقوا يخربون القرى

التى تقع فى طريقهم ، وينهبون أطعمتها وخيراتها . ولكن ما كادت قوات الروم تصل إلى نقيوس ، ومحلها اليوم الكوم الأثرى بالقرب من رزين مركز منوف ، حتى فاجأتها قوات عمرو بن العاص ، وأنزلت بها هزيمة فادحة ، اضطرت بعدها إلى الارتداد إلى قاعدتها فى الاسكندرية .

غير أن بقاء الروم فى الاسكندرية صار أمراً مؤقتاً ، لأنهم فقدوا كل سند من أهل البلاد . وذكر ابن عبد الحكم فى إحدى رواياته التى تدل على سعة اطلاعه أن عمرو بن العاص استطاع اقتحام أسوار الاسكندرية المنيعة للمرة الثانية بفضل معونة تلقاها من أحد حراس أبوابها ، وأنزل بالروم هزيمة فادحة ، سقط فيها قائدهم منويل نفسه قتيلا .

ويلاحظ الباحث فى التاريخ الحربى المصرى فى العصور الوسطى قوة هذا البحث وسلامته ، على نحو ما شرحه ابن عبد الحكم . إذ نهج المماليك من حكام مصر فيما بعد على نمط أسلوب عمرو بن العاص فى ردهم لحملات الصليبيين عن دمياط ، فعمدوا إلى إغراء الصليبيين على ترك قاعدتهم فى دمياط ، والتوغل فى شمال الدلتا ، ثم مفاجأتهم وهم بعيدون عن مراكز إمداداتهم ، ودحرهم آخر الأمر ، وطردهم من البلاد خاسرين .

المجد القومى :

وانتقل ابن عبد الحكم إلى دراسة الموضوع الثانى فى ميدان التاريخ المحلى المصرى ، وهو الاشادة بأمجاد وطنه ، وإظهار نواحى قوته ، وما أسهم به من خدمات فى سبيل حماية دار الإسلام والوطن العربى الكبير . وتعد دراساته فى هذا الموضوع الثانى تكملة لما بحثه فى الموضوع الأول ، إذ تحدث عن التاريخ البحرى لمصر ، فى ظل العهد العربى الجديد ، وكيف قام الأسطول المصرى بأعظم نشاط له ، وهو ما زال فى دور النشأة والتكوين .

وسجل ابن عبد الحكم هذا النشاط البحرى المصرى فى وصفه لمعركة « ذات الصوارى » ، التى خاضها الأسطول المصرى سنة ٣٤ هـ/٦٥٥ م ضد حملة بحرية هائلة ، أعدها قنسطانز الثانى ، إمبراطور الروم ، لإخراج العرب مرة أخرى من مصر . وأثبت هذا المؤرخ عن طريق الوصف الدقيق الذى أورده لهـــذه المعركة البحرية ، حقائق هامة ، تعلى من شأن وطنه ، وتبين مكانته السامية فى عالم البحار . إذ كشف عن نتيجة توصلت إليها الأبحاث الحديثة فيما بعد ، وهى أن مصر صارت تصنع السفن الحربية ، الكبرى والصغرى ، منذ فجر تاريخها فى ظل العروبة والإسلام ، وأن دور الصناعة بها نشطت مرة أخرى واستعادت سالف مجدها القديم .

والأمر الثانى الذى أشاد به ابن عبد الحكم هو خروج والى مصر نفسه ، وهو عبد الله بن أبى سرح على رأس الأسطول المصرى حين بلغه نبأ توجه حملة الروم البحرية إلى الاسكندرية . إذ توضح هذه الحقيقة التاريخية أمراً جليلا ، ألا وهو أن العرب فى مصر ألفوا سريعاً ركوب البحار ، وحطموا التهمة التى حاول بعض المؤرخين أن يلصقونها بهم ، وهى أنهم قوم يهابون البحر ، واعتلاء صفحة مياهه . والمعروف أن مصر لها شواطىء طويلة على البحر المتوسط ، وخرجت منها السفن منذ أقدم العصور للمتاجرة وللدفاع عن تلك الشواطىء كذلك .

واتبع ابن عبد الحكم فى وصف مراحل معركة ذات الصوارى البحرية أسلوباً أشبه بأسلوب المراسلين الحربيين فى الوقت الحاضر ، وهو ذكر التفاصيل التى تعطى للقارىء صورة حية نابضة عن مشاعر الجند وألوان البطولة التى قاموا بها . فذكر أن جند المسلمين حين التقوا بسفن الروم فى عرض البحر ، هالهم كثرة صوارى تلك السفن ، والأعداد الكبيرة على ظهرها ، وبدأت قيادتهم ترسم خطة القتال ، لمواجهة هذا العدو الخطر . وهنا عمد ابن عبد الحكم مرة أخرى إلى الإمعان فى بيان تفاصيل خطة المسلمين للقتال ، مما يفيد الباحث فى التاريخ الحربى البحرى للمسلمين ، وتزويده بأدق المعلومات وأوضحها .

ودارت المرحلة الأولى للقتال بأن تراشق الطرفان بالأقواس والسهام . وأظهر ابن عبد الحكم أن إمبراطور الروم عمد إلى إغراق سفن المسلمين بهذا اللون من الأسلحة ليطيح بما لدى العرب منها ، ويجعلهم بالتالى يفتقرون إليها . ونجحت خطة الروم حين نفدت أسلحة العرب من الأقواس والسهام ، وظن الامبراطور أن النصر صار حليفه . غير أن المسلمين استأنفوا القتال بقذف العدو بالحجارة ، وتجدد النضال على النحو الذى اتبعه الفريقان فى المرحلة الأولى من المعركة ، وأيقن إمبراطور الروم من النصر مرة أخرى حين انتهت ذخيرة العرب من الحجارة ، وعمد إلى الاقتراب من سفن المسلمين . وهنا شرح ابن عبد الحكم الدور الأخير من معركة ذات الصوارى ، موضحاً قدرة المسلمين على ملاءمة أنفسهم لمجريات القتال . إذ ربطوا سفنهم إلى بعضها بعضاً ، وقذفوا سفن الروم بالخطاطيف ، حتى إذا مااقتربت منهم ، قفزوا إلى مراكب الروم ، وأعملوا فى الجند القتال بالسيوف والخناجر .

وبلغ ابن عبد الحكم درجة الابداع فى تصوير القتال ، حين ذكر موقف القيادة الإسلامية من هذا القتال ، وما حدث لها أثناءه . ذلك أن امبراطور الروم حين علم بأسلوب العرب الأخير فى النضال أدرك هزيمة جنده ، وعمد إلى بث الذعر والارتباك فى صفوف الأسطول المصرى ، ومن أجل ذلك أمر بإلقاء خطاف كبير على سفينة القيادة

الإسلامية ، التى تقل عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، والذى كانت ترافقه بها زوجته بثينة . ونجحت خطة الروم فى جذب هذه السفينة ، بعيدا عن الأسطول المصرى . ولكن قبل أن يتم للروم تحقيق بغيتهم ، انطلق أحد الجنود الأبطال ، التابع للقيادة العليا الإسلامية ، وكان إسمه علقمة ، وحطم سلاسل الروم بفأسه ، دون أن يأبه بالنبال التى حاول الروم إصابته بها . وعادت سفينة القيادة الاسلامية إلى موضعها وباشرت القتال الذى انتهى بالنصر المظفر للأسطول المصرى ، وهرب إمبراطور الروم ، بعد أن خسر العدد الكثير من سفنه وجنده .

ولم ينس ابن عبد الحكم أن يصور مشاعر ركاب سفينة القيادة ، وما جاشت فى نفوسهم من أحاسيس إزاء الخطر الداهم الذى كاد يحل بهم . إذ سأل عبد الله بن سعد زوجته عن رأيها فى أشد الجند قتالا ، فأجابته بأنه هو علقمة ، أو « صاحب السلسلة » كما شاءت أن تلقبه بذلك الاسم . وهكذا خلد ابن عبد الحكم فى صورة شائقة ، واضحة المعالم ، جيدة الاخراج هذه المعركة البحرية الكبرى التى خاضها أسطول وطنه ، والتى سماها التاريخ باسم « ذات الصوارى » لكثرة صوارى السفن التى اشتركت فى القتال . وفى نفس الوقت ترك هذا المؤرخ لوطنه ذكرى طيبة فى عالم البحار ، وأشاد بمكانته فى ميدان الحروب البحرية . اذ جاءت معركة ذات الصوارى حدا فاصلا بين عهدين ، انتهى فى الأول محاولات الروم للاغارة على مصر والعمل

لاستردادها ، وبدأ فى الثانى مجدالأسطول المصرى ، وتعاونه معالسفن العربية فى كل مكان ، حتى صار البحر المتوسط تحت سيطرتها وخاضع لسيادتها .

وتجلت مرة أخرى المقدرة التى تمتع بها ابن عبد الحكم فى ميدان عرض ما لديه من مادة تاريخية حين ذكر انتداب عمرو بن العاص لأحد رجاله المخلصين وهو معاوية ابن حديج ليزف إلى الخليفة فى المدينة بالحجاز بشرى الاستيلاء على الإسكندرية . إذ طلب معاوية من عمرو أن يكتب له رسالة تصف للخليفة ما تم من نصر مؤزر ، ولكن عمرو رفض هذا الطلب، وقال فى ثقة واعتزاز لمعاوية ابن حديج : «وما أصنع بالكتابة ، ألست رجلا عربيا ، تبلغ الرسالة، وما رأيت وحضرت؟» . واستهدف ابن عبد الحكم من الاستشهاد بهذا القول إظهار قدرة العرب على نقل الروايات فى ثقة وأمانة ، والإشادة بعلو كعبهم فى هـــذا الميدان من قوة الذاكرة ، وهو الأمر الذى حفظ للتاريخ العربى الكثير من أحداثه وتطوراته .

ثم أنهى ابن عبد الحكم دراساته لأحداث الفتح نهاية طيبة تشهد بحسن أسلوبه ، واختياره الموفق للروايات التى تدعم عرضه ، لما لديه من مادة تاريخية ، فذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب ظل ساهرا يتابع بنفسه أنباء الفتح العربى ، وأن رسول عمرو بن العاص حين وصل المدينة كان الوقت وقت الظهيرة ، وآثر الانتظار فى المسجد

حتى يحين الوقت المناسب للذهاب إلى الخليفة . غير أن أخبار هذا الرسول بلغت عمر بن الخطاب ، فاستدعاه فوراً ، وعتب عليه هذا التأخير فى مقابلته ، وأخبره أنه لا ينام من أجل خدمة رعاياه ، وأن الواجب يحتم عليه المبادرة بإبلاغ مالديه من أخبار هامة ، ولا سيما فتح العرب للاسكندرية .

وهكذا أوضح هذا الوصف الدقيق الذى أورده ابن عبد الحكم ، نقلا عن معاوية ابن حديج ، تلهف الخليفة عمر بن الخطاب على سماع أخبار مصر ، وفرحه العظيم بدخول هذه القاعدة الكبرى فى رحاب العروبة ، وأن فى ذلك عزة للعرب ، مصداقا للحديث الشريف ، الذى أورده ابن عبد الحكم فى ذكر فضائل مصر ، حيث قال الرسول الكريم : « إنكم ستقدمون على قوم ، جعد رؤوسهم (يعنى أهل مصر) ، فاستوصوا بهم خيرا ، فإنهم قوة لكم ، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله . » . وبذلك ترك ابن عبد الحكم دراسة قيمة عن فتح العرب لمصر ، تشهد له بصفات المؤرخ الكبير ، وتؤكد ما تمتع به هذا العالم الفذ من خصال حميدة ، وقدرات عالية على الدرس والتحصيل .

الفصل الثامن

تدوين التاريخ المحلّى

معالجة نواحى الضعف القومى :

يعتبر ابن عبد الحكم واضع أسس التاريخ المحلى لمصر ، وصاحب المنهج المثالى الذى احتذاه من تبعه من مؤرخى هذه الديار . وعلى الرغم من تصدى ابن عبد الحكم لهذا الميدان البكر إلا أنه أظهر مواهب فذة أضافت إلى مكانته التاريخية العالية قوة ورفعة . إذ تحلى بكل الصفات التى تتوافر للراغب فى تدوين التاريخ المحلى لوطنه ، من حيث النظر الثاقب ، والفطنة المتوقدة ، والصبر الطويل من أجل جمع المعلومات ، ثم عرضها بحيث يستفيد منها أبناء الوطن .

واختار ابن عبد الحكم ثلاثة مواضيع عالج عن طريقها التاريخ المحلى لمصر ، مستهدفا بالأول منها الكشف عن نواحى الضعف الواجب اتخاذ الحيطة لها ، وإعداد العدة لوقايتها وحمايتها ، وبالثانى إظهار مواطن القوة والإشادة بها لتكون حافزاً لمواطنية على التغنى بأمجاد الآباء والأجداد ، والسير قدما فى طريقهم للاعلاء من شأن بلادهم ، وبالثالث بيان صلة الجوار بين وطنه وما يحيط به من بلاد ، وذكر ماتتطلبه تلك العلاقات من يقظة وحب للسلام .

وعالج ابن عبد الحكم الموضوع الأول عقب فراغه من دراسة فتح العرب لمصر. فقد فرضت الملابسات الزمنية نفسها إذ ذاك على وطنه، ورسمت للأهالى والسلطات الحاكمة به طرق التفكير السليم لحماية وضعهم الجديد ، الذى جاء بدخولهم فى دائرة العروبة والاسلام . وجمع ابن عبد الحكم مادته التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع من ثنايا الأحداث التى دارت رحاها حول محاولات الروم لاسترداد مصر ، والقضاء على سلطان العرب بها . إذ كشف هذا المؤرخ عن حقيقة لا يدرك أهميتها إلا كل راغب فى حماية وطنه ، حريص على تدوين تاريخه المحلى بما يبصر المواطنين بالأخطار التى تكمن لهم ، ويرشدهم عن طريق عرض النماذج التى يختارها إلى أمثل السبل للنجاة والأمان. وكانت تلك الحقيقة هى أن الروم لم ينسوا مصر وخيراتها ، على الرغم من الهزائم التى نزلت بهم على يد العرب ، وظلوا يمنون النفس بالعودة إلى تلك البلاد ، دون اهتمام بكراهية المصريين لهم كذلك .

وأشار ابن عبد الحكم إلى أن مطامع الروم تمخضت عن حملة قاموا بها على مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م ، وتولى قيادتها رجل يدعى منويل ، وهو ممن سبق أن حارب العرب فى مصر ، وصار خبيراً بأساليبهم فى القتال . ثم عرض هذا المؤرخ تفاصيل تلك الحملة فى أمانة ونزاهة ، حتى يكشف لمواطنيه عن نواحى الضعف فى وطنهم ، ويحملهم بالتالى على حراستها والدفاع عنها . فأوضح أن الروم نزلوا الاسكندرية

على حين غرة من حاميتها ، واستولوا عليها ، واتخذوها قاعدة لاسترداد البلاد كلها . وكان السبب فى نجاح خطه الروم هو افتقار العرب إلى الأساطيل اللازمه لحراسة الشواطىء المصرية ، ورد أى عدوان قبل الاقتراب منها .

علاقات الجوار :

أما الموضوع الآخر الذى درسه ابن عبد الحكم لتوضيح جوانب التاريخ المحلى لوطنه ، فقد أفرده لبيان علاقات مصر بجيرانها فى الجنوب والغرب ، أى فى السودان ، أو بلاد النوبة كما سماها هو نفسه بذلك الاسم ، وفى إفريقية ، وهى تونس الحالية . وأكد هذا المؤرخ ببحثه الجديد فى ميدان العلاقات الخارجية أهمية موقع وطنه الجغرافى ، وأنه يحتم على السلطات الحاكمة فى مصر أن ترسم سياستها الافريقية على أساس حماية جيرانها من كل خطر أو عدوان خارجى ، وأن تمد يد المساعدة لهم ، وتعمل على ما يحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم .

وأشار ابن عبد الحكم إلى حقائق هامة فى هذا الميدان العظيم من ميادين علاقة مصر بجيرانها ، وهو أمر لا يتاح إلا لمؤرخ وطنى ، عاش فى هذا البلد الأمين ، وكرس جهده لدراسة نظمه ومعاملاته . وأول هذه الحقائق أن مصر حفلت بعدد كبير من أهل النوبة أو السودان حضروا للمتاجرة فيها ، وأنهم نعموا بنفس الشروط التى عامل بها عمرو بن العاص أهل مصر بعد انتصاره على الروم . فهذه الفقرة الموجزة

التي أوردها ابن عبد الحكم تكشف عن استمرار العلاقات التجارية بين مصر والسودان ، وأن السلطات العربية أدركت منذ فجر أيامها في الديار المصرية أهمية التجارة مع السودان ، وحرصت على ألا يمسها تغيير أو تبديل . وودّعم عمرو بن العاص وجهة نظر السلطات العربية إزاء أهل النوبة بوضع نص خاص بهم في المعاهدة التي عقدها مع المصريين ، وجاء في هذا النص ضرورة العمل على احترام علاقات حسن الجوار بين الطرفين ، وذلك بألا يقوم أهل النوبة بأعمال عدوانية ضد العرب ، وفي مقابل ذلك تقدم السلطات العربية للتجار النوبيين كل معونة ممكنة .

وأوضح ابن عبد الحكم أنه وقع سوء تفاهم حول تنفيذ النص السالف الذكر بعد عزل عمرو بن العاص عن مصر ، مما استدعى خليفته ، وهو عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى الخروج على رأس حملة إلى بلادالنوبة . ولكن سرعان ماعادالتفاهم بين الطرفين، وعقدت بينهما معاهدة أخرى ، أكدت نصوص المعاهدة الأولى ، ولاسيما المحافظة على التبادل التجاري بين مصر والسودان . ويعتبر هذا البحث الذي قام به ابن عبد الحكم عن علاقة مصر بجيرانها في الجنوب بحثا أصيلا ، أو مبتكرا . ذلك أن هذا المؤرخ اعتمد في جمع مادته العلمية على أهل النوبة المقيمين بمصر ، ومن شيوخهم وعلمائهم الذين أقاموا بالبلاد . وكان أحد أولئك الشيوخ النوبيين ، وهو ابن حبيب ، من

أساتذة ابن عبد الحكم، وممن ترك له معلومات وافرة نادرة. واعترف ابن عبد الحكم بفضل أستاذه عليه، وأشار إليه مرارا وتكرارا، كما استشهد بأقواله ورواياته، فيما ذكره فى بحثه السالف.

واعتمد ابن عبد الحكم أيضا فى بحثه عن علاقة مصر ببلاد السودان على الوثائق المحفوظة فى سجلات الفسطاط. ذلك أن السلطات العربية فى القرن الثالث الهجرى، أى على أيام ابن عبد الحكم، اهتمت بالمعاهدة التى أبرمها عبد الله بن سعد مع أهل النوبة، بسبب ازدياد العلاقات التجارية إذ ذاك مع أولئك السكان، ورغبتها فى إعادة دراسة نصوص هذه المعاهدة. وكانت دار المحفوظات العامة، أو الأرشيف فى الفسطاط قد امتلأت بالوثائق، مما جعل الأمناء هناك يجدون صعوبة جمة فى البحث عن هذه المعاهدة وتقديمها لرجال السلطات العربية. وأثارت عملية البحث السالفة اهتمام المعاصرين، كما تعاون فيها نفر من الخبراء وذوى العلم بشئون السودان، وهو أمر أتاح لابن عبد الحكم فرصة نادرة للإحاطة بتفاصيل علاقة مصر بالسودان، وجعله ينفرد بهذا البحث المبتكر، الذى اعتمد عليه كل من جاء بعده من المشتغلين بالتاريخ المحلى لمصر.

وعلى هذا النحو من الدراسة القيمة تابع ابن عبد الحكم أبحاثه فى علاقة وطنه بجيرانه فى الغرب، أى بأهل إفريقية، وهى تونس الحالية. وأوضح هذا المؤرخ — مرة أخرى — أن سبب اتجاه

السلطات العربية نحو إفريقية ، والاهتمام بشئونها ، هو بقاء الروم أعداء العرب بها ، وأن الأمر يتطلب إذ ذاك حماية الباب الغربى لمصر من خطر أولئك الأعداء ، ريثما تتم العدة لطردهم نهائيا ، وتحرير بلاد المغرب من مفاسدهم . ومن ثم تعتبر دراسة ابن عبد الحكم لشئون إفريقية امتداد لبحثه فى تاريخ وطنه ، وتأكيد منه لقوة الروابط الجغرافية والاجتماعية بين مصر وشمال إفريقية .

واتسم أسلوب ابن عبد الحكم بنفس الصفات التى اتصف بها فى تتبعه لأحداث فتح العرب لمصر ، إذ مزج بين التاريخ والجغرافيا ، لتوضيح الحملات الاستطلاعيه التى قام بها كل من عمرو بن العاص ، وخليفته عبد الله بن سعد بن أبى سرح لحماية الباب الغربى لمصر . ولذا تعد دراسات هذا المؤرخ أساسا طيبا للباحث فى الجغرافية التاريخية لبلاد شمال إفريقيا ، ومعرفة التطورات التى طرأت على مسالكها وأوضاع مدنها ، سواء على الساحل أو فى قلب المناطق الصحراوية ، وكذلك لتحديد وسائل المواصلات بين مصر وهذا القطر الشقيق .

ومهد ابن عبد الحكم لبيان علاقات السلطات العربية فى مصر بجيرانها فى شمال إفريقيا بذكر مقدمة تاريخية عن كل من برقة وطرابلس ، أو أطرابلس ، كما دونها بذلك الاسم . فأوضح سوء أحوال هاتين المنطقتين أيام تبعيتهما للروم ، وكيف أن أهلهما خضعا للكثير من الضرائب الفادحة والعنت الشديد . ثم أتبع هذه المقدمة التاريخية بكلمة عن

جغرافية برقة وطرابلس من الناحيتين الطبيعية والبشرية ، كما عدد أسماء القبائل الكبرى التى انتشرت فى شتى النواحى هناك .

وظلت هذه المعلومات التى ذكرها ابن عبد الحكم موضع التقدير ، دون أن ينتقص من صحتها باحث آخر أو ناقد . إذ كان هذا المؤرخ أمينا فى تدوينه للتاريخ المحلى لوطنه ، وإعطاء صورة واضحة بقدر الإمكان لمواطنيه عن جيرانهم ، ونوع أرضهم ومعيشتهم ، وسرد جانب من تاريخ حياتهم كذلك . ثم ربط ابن عبد الحكم بين تاريخ هذه الجهات وبين طلائع النشاط الإسلامى بها بتوضيح أثر العوامل الجغرافية فى حمل حكام مصر على الاهتمام بشئون برقة وطرابلس منذ فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية . فبعث هذا القائد حملات سريعة إلى هاتين المنطقتين لجمع أخبارهما ، ودراسة الأحوال فيهما .

وأشار ابن عبد الحكم فى ثنايا تدوينه لأخبار هذا الشطر من التاريخ المحلى إلى أن السلطات العربية فى مصر عهدت إلى رجال من المقربين لها بتولى قيادة الحملات على برقة وطرابلس ، كما جهدت فى منح أولئك الرجال أسباب الاستقرار والطمأنينه . فمن ذلك أن عمرو ابن العاص جعل أحد أقربائه وهو عقبه بن نافع الفهرى على رأس حملاته المتكررة التى بعث بها الى الأرجاء الواقعة على الباب الغربى لمصر ، وأن هذا القائد العربى قضى فى الميدان الافريقى سنوات طويلة ، حتى صار فيما بعد من الأركان الأساسية لنشر الاسلام فى بلاد المغرب .

وبعبارة أخرى أوضح ابن عبد الحكم أن الحملات الاستطلاعية التى بعث بها عمرو بن العاص إلى برقة وطرابلس كانت المدرسة التى تخرج منها قادة الفتوح فى الميدان الافريقى ، وأن مصر صارت قاعدة هذا النشاط الحربى ، ومركز إمداداته وتموينه ، حتى علت كلمة الاسلام كل أرجاء شمال إفريقيا .

الفصل التاسع

مرتع الصبا

الفسطاط

تأسيس الفسطاط :

لم ينس ابن عبد الحكم تاريخ مسقط رأسه ، وهى مدينة الفسطاط، حيث ولد بهذه العاصمة الزاهرة ، وتفتحت عيناه على منازلها وأحيائها، كما تنقل بين شوارعها وأسواقها ، وقضى لياليه تحت سمائها ، والتقى فيها بكبار رجال الدولة ، وغيرهم ممن كان لهم الفضل فى تنشئته العلمية والاجتماعية . ولذا لم يكن عجبا أن يخص ابن عبد الحكم الفسطاط بنصيب ملحوظ بين تاريخه القيم ، ويكتب عنها بوجدانه وأحاسيسه، كما نظر إليها بعين فاحصة واعية ، الأمر الذى ترتب عليه ظهور بحث مبتكر فى تاريخ المدن العربية ، لم يسبقه إليه أحد ، وصارت كتاباته فى هذا الموضوع نموذجا احتذاه من جاء بعده ، ومن نقل عنه أيضاً من الدارسين فى تاريخ المدن العربية فى العصور الوسطى .

وترجع أهمية الفصل الذى دوّنه ابن عبد الحكم عن تاريخ الفسطاط إلى أنه ربط الحضارة العربية بمصدر هام من مصادرها الأولى

فى مصر ، ثم شرح الكثير من مظاهر هذه الحضارة بصورة تكشف
عن انتشار العروبة فى أرجاء مصر وما جاورها من بلاد المغرب
والسودان أيضاً . ذلك أن تاريخ المدن ظل طوال العصور القديمة
والوسطى المرآة التى ينعكس عليها شتى التيارات التى تمتلىء بها البلاد ،
سواء فى النواحى السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية . ونتيجة
لهذه الحقيقة صارت كلمة المدنية مشتقة من المدينة ، وما يرتبط بها من
أسباب العيش الرغد الهانىء . ويلمس الباحث فى التاريخ القديم والوسيط
أن المدن الكبرى فيه تعكس أدوار أحداثه ، وتطوراتها . فتاريخ
أثينا واسبرطة مثلا ، هو تاريخ اليونان القدامى بفلسفته وتشريعاته ،
وتاريخ روما وقرطاجنة هو تاريخ الامبراطورية الرومانية ، وتوسعها
الحضارى ، وهكذا . ومن ثم فإن تاريخ الفسطاط صار تاريخ مصر فى
أحضان العروبة ، وجهاد مصر المبكر من أجل إعلاء راية العروبة ونشر
رسالتها فى شتى الأرجاء المجاورة لها .

ويعتبر ابن عبد الحكم بذلك واضع أسس التاريخ القومى العربى
فى مصر ، والمؤرخ العربى الأول فى هذا الميدان . ثم إنه وضع منهجا
فريدا فى هذا الميدان ، صار النبراس الذى هدى الباحثين فى تاريخ
مصر القومى فى ظل العروبة ، وعمدوا إلى إكمال ما تركه أستاذهم ابن
عبد الحكم . ومن ثمة تفخر مصر اليوم بتاريخ متصل مشرف فى سبيل
خدمة العروبة والأمة العربية ، ويطالع الخلف عن السلف هذه

الصفحات المشرقة ، التى تبدأ بما دوّنه ابن عبد الحكم ، وتصل إلى ما نراه اليوم من رسالة مصر فى إعادة مجد الأمة العربية ، ورفعها إلى المكانة اللائقة بها بين مجموعة أمم العالم .

واستهل ابن عبد الحكم بحثه فى تاريخ مسقط رأسه بذكر تأسيسها ، والروايات التى ظلت عقول المعاصرين تعيها بهذا الصدد ، مع بيان أسباب تسميتها بذلك الإسم الذى اختصت به عبر التاريخ . فروى هذا المؤرخ أن عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر ، وطرد الروم من الاسكندرية فكر فى اتخاذ عاصمة له ، وذلك جريا على سياسة العرب فى إنشاء الحواضر فى البلاد التى يتم لهم فتحها ويرغبون فى الاستقرار بها . فقال ابن عبد الحكم ، نقلا عن يزيد بن أبى حبيب ، أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ، ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منه همّ أن يسكنها وقال : « مساكن قد كفيناها » . وكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك . فسأل عمر الرسول ، الذى بعث به عمرو بن العاص ، « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إذا جرى النيل » . فكتب الخليفة إلى عمرو . « إنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فيه شتاء ولا صيفا ، » فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط . .

وأشار ابن عبد الحكم أيضاً أن الخليفة عمر بن الخطاب لم يختص قائده فى مصر بهذا الرأى ، وهو ضرورة اتخاذ العاصمة فى مكان لا يحول بينه وبينها ماء . إذ كتب الخليفة فى نفس المعنى الذى

بعث فيه برسالته السالفة إلى عمرو بن العاص، ووجه رسالة أخرى إلى قائده فى بلاد العراق ، وهو سعد بن أبى وقاص ، وإلى عامله على البصرة ، جاء فيها : « لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . ولذا ترك سعد بن أبى وقاص مدائن كسرى وأسس الكوفة ، كما شيد عتبة بن غزوان مدينة البصرة على شط العرب» . وبذلك أوضح ابن عبد الحكم أن القاعدة التى سار عليها العرب فى تأسيس الحواضر الجديدة ، على عهد عمر بن الخطاب، هى اتخاذ مكانها فى جهات لا تتعرض فيه لأن تنقطع عن العالم المجاور لها بواسطة الماء.

وانتقل ابن عبد الحكم من هذه القاعدة العامة التى اتبعها المسلمون فى تأسيس الحواضر إلى شرح التخطيط الخاص بمدينة الفسطاط . وتعتبر المعلومات التى ذكرها ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع ذات قيمة تاريخية كبرى ، لأنها تستند إلى مصدرين كل منهما وثيق الصلة بالفسطاط وتطورها . أما المصدر الأول فهو أسرة ابن عبد الحكم ، حيث حفظ الوالد والأخوة الكثير من أخبار الفسطاط ، والتى تناقلوها بدورهم عن أجدادهم وكبار المعاصرين لهم . والمصدر الثانى هو مشاهدات المؤرخ ابن عبد الحكم نفسه ، التى اتسمت بالدقة والنظرة الفاحصة. ومن ثم تعتبر الصفحات التى تناول فيها ابن عبد الحكم تاريخ الفسطاط أساسا طيبا للباحثين فى فن العمارة الإسلامية ، ومدى ارتباط هذا الفن بالبيئة ومطالبها .

وأول شيء أظهره ابن عبد الحكم هو اعتزازه بالروايات التي نقلها عن والده فيما يتعلق باسم عاصمة ديارهم ، وسبب اختيار موقعها . إذ أخبره والده أن عمرو بن العاص حين انتهى من الاستيلاء على حصن بابليون وأراد التوجه إلى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه، أي خيمته التي ضربها خارج الحصن. ولكن يمامة أفرخت إذ ذاك بهذا الفسطاط مما حدا بعمرو إلى ترك فسطاطه ، عطفا منه على هذا الطائر . وعندما رجع عمرو من الاسكندرية ورغب في تأسيس عاصمة له، تذكر مكان فسطاطه قرب حصن بابليون ، ووقع عليه اختياره لتحقيق هذه الرغبة.

وتعتبر هـــذه القصة محاولة من ابن عبد الحكم لتحديد مكان الفسطاط ، وبيان السرعة كذلك التي تم بها اختيار هذا المكان. ولازم التوفيق هذا المؤرخ في عرضه للأخبار الأولى للفسطاط ، إذ كشف عن قيامها في مكان اشتهر منذ أقدم العصور بأنه مكان استراتيجي ، فضلا عن تمتعه بمزايا تجارية واقتصادية هامة . ولا ينتقص من قيمة هذه الأخبار اعتمادها على قصة اليمامة وأنها أفرخت في الفسطاط أو خيمة عمرو ، إذ لا ينتظر من ابن عبد الحكم أن يلتمس تعليلا غير التعليل الذي ذكره في نشأة الفسطاط ، وخاصة أنه دوّن تاريخه في وقت افتقر فيه إلى أسباب الدراسة الحديثة ، من حيث التنقيب عن الآثار ودراسة المخلفات .

ومما يدل على مقدرة ابن عبد الحكم في استنتاج الحقائق التاريخية

وقوة النتائج التى وصل إليها ، أنه نسب تسمية العاصمة باسم «الفسطاط» إلى فسطاط عمرو بن العاص ، الذى أفرخت فيه اليمامة . وقد حاول بعض المؤرخين إيجاد تعليل آخر لهذا الإسم غير الذى ذكره ابن عبد الحكم . ولكن آراء هؤلاء المؤرخين تشعبت ، وبعضهم تمادى فى القول حتى رأى أن كلمة الفسطاط مشتقة من الكلمة اللاتينية (Fossatum) بمعنى المعسكر الكبير ، أو المدينة ، وأن العرب استعاروا هذه الكلمة من الروم . غير أن المؤرخين العرب الذين نقلوا عن ابن عبد الحكم رجحوا رأى هذا المؤرخ العالم ، وأيدوا قوله فى أن اسم الفسطاط نسبة الى خيمة عمرو بن العاص . ثم أن الأبحاث الحديثة دعمت وجهة نظر ابن عبد الحكم حين نادت بأن الفسطاط كلمة عربية أصيلة ، وأن العرب استخدموها بمعنى « مجتمع أهل الكورة ، أى الصقع أو المدينة» ولذا فإن الفسطاط كلمة عربية بمعنى المدينة ، وأن ابن عبد الحكم استهدف بهذا الاسم أن فسطاط مصر صارت مجتمع العرب ومقرهم الدائم فيها .

وانتقل ابن عبد الحكم بعد ذلك إلى دراسة موقع الفسطاط وتحديد معالمها الأولى . ولم يكن هذا بالعمل اليسير ، لأن كثيرا من مبانيها الأولى قد اندثرت على أيامه ، أى فى القرن الثالث الهجرى ، أو دخلت عليها تغييرات عديدة تكاد تخفى مظاهرها الأساسية . وعمد ابن عبد الحكم الى طريقة مبتكرة أثبت أنها صالحة تماما لتحقيق

أهدافه ودراساته. إذ ربط بين المعلم الذي يتناول تاريخه وبين المبانى أو العمائر التى قامت على آثار هذا المعلم، حتى يستطيع القارىء أن يتصور المكان الأصلى، ويتفهم أبعاده وامتداده. ونجح ابن عبد الحكم بذلك فى ربط الماضى بالحاضر على أيامه أيضا، عامداً إلى إثارة انتباه الباحث نحو ما كان عليه المكان الذى يصفه له، ثم يشرح له التطورات التى مر بها هذا المكان. ولا شك أن هذه الطريقة التى تستخدم البيئة التى يعيش فيها الإنسان، ثم تتطرق منها إلى الوراء شيئاً فشيئا، تعتبر طريقة صحيحة، جديرة بتوضيح المعالم التى يستهدفها الباحث.

ونهج على منوال ابن عبد الحكم سائر المؤرخين الذين جاءوا من بعده، وتناولوا تاريخ الفسطاط بالدراسة والتحليل. ثم أن هؤلاء المؤرخين وجدوا فى المادة التى تركها لهم أستاذهم الأول خير أساس يشيدون عليه صرح دراساتهم. إذ كان كل مؤرخ يرجع إلى ما ذكره ابن عبد الحكم من وصف لعمران الفسطاط، ثم يصف ما طرأ على هذا العمران من تطور وتغير وتبديل كلما مرّت الأيام والسنين. ولذلك نعمت مدينة الفسطاط بتاريخ ثابت واضح المعالم، قلما نعمت به مدينة أخرى من المدن الإسلامية، بفضل دراسات ابن عبد الحكم وحرصه على تخليد مسقط رأسه ومرتع صباه.

واتصف أسلوب ابن عبد الحكم فى عرضه للروايات الخاصة بمعالم الفسطاط بالقدرة على اجتذاب انتباه القارىء، والبعد به عن

الملل أو الشطط . ذلك أن هذا المؤرخ اتخذ لنفسه خطة رسمها ، بحيث تحقق أهدافه ، وتمكنه من إعطاء صورة كاملة غير مختلطة الألوان والأضواء . وتطلبت هذه الخطة بدورها دراسة لفن العمارة الإسلامية وتطورها ، وفهم الطريقة التى اتبعها العرب فى تأسيس حواضرهم وأمصـــارهم . فأوضح ابن عبد الحكم الخطة التى سارت عليها طلائع الفن المعمارى الإسلامى ، ذاكراً أن بناء المسجد ، واتخاذه قلب المدينة أو «المصر» ، كان قاعدة أساسية، التزمت بها الأجيال الأولى عند اختيار أى مكان للبناء والاستقرار فيه . ولذا استهل ابن عبد الحكم دراساته بوصف مسجد عمرو بن العاص ، ومبيناً كيف أنه صار مركز الفساط وعمرانها .

واستخدم ابن عبد الحكم أسلوبه البديع ، فى تصوير هذا المعلم الأول فى الفسطاط ، موضحاً لمعاصريه فى القرن الثالث أن المكان الأصلى الذى وقع عليه اختيار المسجد كان أرضاً خصبة ، حافلة بالبساتين النضرة ، ثم أقامت بعض القبائل على هذا المكان مضارب لها . ولم تلبث تلك القبائل أن تنازلت عنها لعمرو بن العاص ، حين علمت برغبته فى تأسيس مسجد فى هذا الموقع ، لما يتمتع به من توسط فى الأرض ، المزمع إقامة الفسطاط فيها . وأشار ابن عبد الحكم إلى طريقة البناء الأولى ، التى اتبعها العرب فى تشييد هـذا المسجد ، ذاكراً أن البنائين استخدموا الحبال فى إقامة الجدران ، وأن عمرو بن العاص ومن معه

من كبار الصحابة اشتركوا فى عملية البناء . ونسب ابن عبد الحكم إلى هذا المسجد فى أيامه الأولى ظاهرة هامة ، وهى إقامة منبر له . غير أن الخليفة عمر بن الخطاب أنكر على عمرو اتخاذ هذا المنبر ، وأمره بإزالته حتى لا يشعر الناس بأنه يميز عنهم فى مجالسهم ومجتمعاتهم.

وأفرد ابن عبد الحكم بعد ذلك قسما خاصاً فى دراسته للفسطاط من أجل تتبع الزيادات التى دخلت على هذا المسجد ، إلى أيامه فى القرن الثالث الهجرى . ومن ثم يعتبر بحث ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع لون من التاريخ لفن العمارة الإسلامية ، أى اقتفاء مظاهر المعالم الكبرى الباقية على أيامه ، وشرح أسباب طول عمرها وازدهارها كذلك . ولا شك أن هذا المؤرخ كان موفقاً فى اختيار مسجد عمرو نموذجا لبحثه عن مبانى الفسطاط ، إذ اتخذ حكام مصر ، منذ عمرو ابن العاص رحاب هذا المسجد مقراً لهم ولإدارتهم ، وندوة يلتقون فيها مع مواطنيهم ، شأنهم فى ذلك شأن سائر الحكام المسلمين ، الذين جعلوا من مساجد الله مراكز دائمة لهم ، وليكون بابها مفتوحاً الراغب فى لقائهم ومناقشتهم .

وروى ابن عبد الحكم أن جميع ولاة مصر اهتموا بتجديد عمارة مسجد عمرو ليتناسب بهاؤه وعظمته مع نمو الفسطاط وعلو شأنها : فقال إن عبد العزيز بن مروان لما ولى مصر سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م من قبل أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان أمر بهدم المسجد ، وذلك

سنة ٧٩ هـ ؛ ووسع جميع جوانبه ، وخاصة من الجهة الغربية . ثم نال هـذا المسجد أيضاً عناية الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذى اشتهر بحبه للبناء والعمارة ، وأنفق فى ذلك الكثير من دخل الدولة . فقال ابن عبد الحكم : « ثم كتب الوليد بن عبد الملك فى خلافته إلى قرّة ابن شريك العبسى ، وهو يومئذ واليه على أهل مصر ـ بإصلاح مسجد عمرو ـ فهدمه كله وبناه هـــذا البناء (أى البناء القائم على أيام ابن عبد الحكم) ، وزوقه ، وذهب رؤوس العمد التى فى مجالس قيس ، وليس فى المسجد عمود مذهب الرأس إلا فى مجالس قيس . وحوّل قرة المنبر حين هدم المسجد إلى قيسارية (أى سوق) العسل ، فكان الناس يصلون فيها الصلوات ، ويجمعون فيها الجمع ، حتى فرغ من بنيانه » .

وتابع الخلفاء العباسيون الاهتمام أيضاً بمسجد عمرو ، حيث صار يعتبر المسجد الأول فى البلاد كلها وصار يعرف باسم « تاج الجوامع » . فزاد موسى بن عيسى الهاشمى سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م فى مؤخرة المسجد حتى يتسع للمصلين . وعندما جاء عبد الله بن طاهر من قبل الخليفة المأمون إلى مصر عمد إلى توسيع المسجد ، وخاصة من العرض ، واستولى من أجل ذلك على بعض المنازل القريبة منه ، وأدخلها فى مساحة المسجد . وصار مسجد عمرو بذلك يتابع رسالته الدينية والاجتماعية والسياسية فى الديار المصرية ، وحفظ له التاريخ مكانته عبر العصور إلى اليوم ، حيث يقف على نفس المكان الأول الذى أقامه فيه مؤسسه ، القائد العربى عمرو بن العاص .

خطط الفسطاط :

وأخذت القبائل العربية التى جاءت مع عمرو بن العاص تشيد لها خططا حول مسجد عمرو ، الذى صار بمثابة قلب العاصمة النابض . والخطة معناها الأرض التى ينزلها الإنسان ، ولم ينزلها قبله نازل ، أو ما يخطه الإنسان لنفسه من الأرض ، أى يجعل لها حدوداً ليعلم أنه نازلها ، وأنها له . ثم اتسع معناها ، وصار يقصد به الحى الذى تختص به القبيلة أو أصحاب مهنة واحدة ، أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن . وقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية خطة فى الفسطاط أى كل قبيلة نزلت فى جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التى اختطوها ، وصارت كل خطة تعرف باسم الجماعة التى نزلت فيها . وانتدب عمرو بن العاص أربعة رجال للإشراف على توزيع القبائل على تلك الخطط ، وهم : معاوية بن حديج التجيبى ، وشريك بن سمى الغطيفى ، وعمرو بن قحزم الخولانى ، وحيويل بن ناشرة المغافرى ، وأتم هولاء الأربعة عملهم فى سرعة ودقة تامة .

وأفاض ابن عبد الحكم فى وصف هذه الخطط الأولى فى مصر العربية ، ونظر إليها بعين الخبير المحب لمسقط رأسه . وتعتبر روايته من أهم الأوصاف الخاصة بهذا الموضوع لأنه ولد وعاش بالفسطاط ، وأدرك معظم معالمها القديمة ، كما أدركت أسرته ما اندثر منها ، ونقل

عن والده وإخوته الكثير من المعلومات المتعلقة بها، وما تعاقب عليها من تطورات إلى يومه، أى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وسار ابن عبد الحكم فى عرض الخطط وفق منهج حسن ، صار فيما بعد النموذج الذى احتذاه مؤرخو مصر وخططها ، والدارسون لتطور هذا البلد الأمين . فذكر الخطط الأولى التى بنيت أيام عمر بن العاص ، ثم ذكر مواضيع تاريخية أحياناً تتعلق بسكان تلك الخطة ، وتدرج من ذلك إلى ربط الموضع الأول للخطة بما عليه الحال فى أيامه ، حتى يستطيع الباحث أن يكوّن صورة واضحة المعالم عن العاصمة .

واستهل ابن عبد الحكم تاريخ الخطط بذكر الدار التى بناها عمرو ابن العاص ، وتحديد مكانها من المسجد ، ثم من تبعه فى ذلك من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر ، وأخيراً القبائل العربية التى كونت الجيش العربى الأول فى مصر . فقال ابن عبد الحكم : اختط عمرو ابن العاص داره التى هى اليوم (أى أيام ابن عبد الحكم) عند باب المسجد، بينهما الطريق، وداره الأخرى اللاصقة إلى جنبها . واختط عبد الله ابنه هذه الدار الكبيرة التى عند المسجد الجامع ، وهو الذى بناها هذا البناء ، ثم روى ابن عبد الحكم نقلا عن أبى صالح الغفارى : أن عمرو ابن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب ، إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع . فكتب إليه عمر ، أنّى لرجل بالحجاز تكون له

دار بمصر ؟ ، وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين . وبعبارة أخرى أن الفسطاط اشتملت منذ أيامها الأولى على المرافق الاقتصادية الهامة .

وذكر ابن عبد الحكم بعد ذلك كبار الصحابة الذين شيدوا لهم خططا بمصر ، إلى جانب عمرو بن العاص وابنه عبد الله ، ومنهم خارجة بن حذافة العدوى ، وعبد الله بن عمر ، وقيس بن أبى العاص السهمى ، والمقداد بن الأسود ، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح العامرى ووردان مولى عمرو بن العاص ، وكان حامل لواء عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد الأنصارى والزبير بن العوام ، وغيرهم كثير . وإلى جانب منازل الصحابة شيدت القبائل خططها ، ومنها أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينه، وينسبون لراية عمرو بن العاص ، إذ لم يكن يوجد من قومهم عدد يقفون معهم تحت راية واحدة ، وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم، فقال لهم عمرو : أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية تقفون تحتها ، فرضوا بذلك .

واشتهر إلى جانب خطة أهل الراية، خطة مهرة، وخطة تجيب، وخطة لخم وجذام ، وخطة بنى بحر وهم قوم من الأزد، وخطة ثقيف، وخطة غافق ، وخطة حضرموت ، وخطة يحصب، وخطة بنى وائل، وخطة بلى، وغيرها كثير أيضاً . وبدأ ابن عبد الحكم يوزع هذه الخطط بالنسبة لمكانها من مسجد عمرو ، كما شرح طريقة بناء تلك الخطط بما يكشف

عن تطور العمارة العربية فى مصر . فكانت بيوت الفسطاط تتكون فى بادئ الأمر من طابق واحد ، ولم يسمح الخليفة عمر بن الخطاب بأن يبنى بعض الناس فيها « غرفا » أى طابقا ثانيا .

ومن نماذج رواية ابن عبد الحكم فى وصفه للخطط الأولى للفسطاط قوله : « واختط خارجة بن حذافه غربى المسجد ... وكان أول من بنى غرفة بمصر ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فكتب إلى عمرو ابن العاص . « أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام » . وأضاف ابن عبد الحكم إلى ذلك أيضاً أن عدى بن كعب قد بنى غرفة فى عهد عمر بن الخطاب ، «فأشرفت فشكت جيرانه إلى عمر بن الخطاب . فكتب إلى عمرو بن العاص : أن أنصب سريرا فى الناحية التى شكيت ، ثم أقم عليه رجلا لا جنسية ولا قصيرا ، فإن أشرفت فسدها » . وهكذا كانت قواعد التنظيم ، بلغة الوقت الحاضر ، تراعى عند بناء منازل الفسطاط ، ولا يسمح لأحد أن يتعدى على حقوق جيرانه أو ينتهك حرماته .

على أن منازل الفسطاط لم تلبث أن ازدادت بهاء وكبرا ، حيث توسع بعض سكانها فى بناء الدور العظيمة . فبنى عبد الله بن سعد ابن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان قصره الكبير الذى يعرف بقصر الجن . وذكر ابن عبد الحكم رواية عن فخامة هذا القصر ،

قال : سأل عبد الله بن سعد المقداد فى داره التى بناها ، كيف ترى بنيان هذه الدار ؟ . فقال المقداد ، موضحا رأيه فى فخامة القصر : إن كان مال الله فقد أسرفت ، وإن كان من مالك فقد أفسدت . فقال عبد الله بن سعد ، لولا أن يقول قائل أفسد مرتين لهدمتها . »

وظهرت بالفسطاط أيضاً منذ أيامها الأولى الحمامات ، تقليدا لما كان متبعا من قبل فى مصر ، إذ اشتهرت البلاد بحماماتها الفاخرة ، حتى إن بعض الناس أطلق على أحد حمامات الفسطاط اسم « حمام الفأر » ، وذلك بالمقارنة إلى الحمامات الكبار القائمة من قبل ، وهى التى استرعت نظر العرب خاصة فى فتح الاسكندرية . ثم شيدت بهذه العاصمة أيضاً الأسواق ، التى أطلق عليها اسم القيساريات ، مثل قيسارية العسل ، وقيسارية الحبال ، وقيسارية البز . واشتهر ببناء تلك الأسواق عبد العزيز بن مروان أيام ولايته لمصر ، وكذلك هشام بن عبد الملك .

ومما يستلفت النظر أن ابن عبد الحكم لم يقتصر على ذكر الخطط العديدة للفسطاط ، من حيث تحديد أماكنها ، وبيان التطورات التى دخلت عليها ، وإنما اتبع طريقة مبتكرة لبث الحياة فى تلك الخطط . اذ سرد الكثير من الحقائق التاريخية التى تتعلق بالأشخاص أوالقبائل التى شيدت الخطط ، كما أورد بعض المعلومات الهامة فى سياق حديثه عن الخطط ، بحيث تعيد إلى ذهن القارىء أمجاداً اندثرت ، وتحثه على

الاعتزاز بماضيه التليد . وقد قلّد ابن عبد الحكم فى هذا العمل كثير من المؤرخين العرب ، وتركوا وراءهم كنوزا من الدراسات القيمة عن تاريخ مصر ، وحضارتها العربية .

وتوضح المقتطفات التالية من كتاب ابن عبد الحكم ، أسلوبه الفريد فى ذكر الخطط ، وما يتعلق بها من أحداث تاريخية هامة . فعندما تكلم عن الدار التى بناها خارجة بن حذافة ، قال : « وكان ابن حذافة على شرط عمرو بن العاص أيام معاوية ، حتى قتله الخارجى (وهو أحد الخوارج الثلاثة ، الذين تعاهدوا على قتل على بن أبى طالب وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان) . وذلك أن عمرو ابن العاص كان أصابه فى بطنه شىء ، فتخلف فى منزله ، وكان خارجة يُعشّى الناس . فضربه الحرورى (وهو الخارجى) ، وهو يظن أنه عمرو . فلما علم أنه ليس عمرا قال . أردت عمرا ، وأراد الله خارجة. فكان عمرو يقول ، ما أنفعنى بطنى قط إلا ذلك اليوم .

وعندما تكلم ابن عبد الحكم عن دار بناها ابن هجالة من قبيلة غافق ، قال . « وفى دار ابن هجالة كان تغيب محمد بن أبى بكر ، حين دخل عمرو بن العاص مصر ... فى صفر سنة ٣٨ هـ (أى أيام النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان) . وكانت للغافقى أخت ضعيفة (العقل) ، فلما أقبل معاوية بن حديج ومن معه فى طلب قتلة

عثمان ، قالت أخت الغافقي : من تطلبون ؟ محمد بن أبي بكر ؟ ، أنا أدلكم عليه ، ولا تقتلوا أخي ، فدلتهم عليه . »

وعلى هذا النحو الفريد من عرض تاريخ الفسطاط ، ترك ابن عبد الحكم صورة واضحة عن معالم العاصمة الأولى للعروبة في مصر . وتدل الأوصاف التي تركها هذا المؤرخ الجليل عن مسقط رأسه ، أن موقع الفسطاط كان يشغل مساحة يقدر طولها بنحو خمسة آلاف متر ، حدها من الشمال جبل يشكر الذي يقع عليه الآن جامع ابن طولون ، ومن الجنوب دير الطين (أو ديرماريو حنا) ، وفي وسطها جامع عمرو ممتدا على ضفة النيل ، قبالة الجزيرة التي تعرف الآن بجزيرة الروضة . ثم أن عرض هذه المساحة لم يزد على الألف متر لأن النيل يحدها من الغرب . وكان مجرى النيل أقرب إلى الفسطاط إذ ذاك مما عليه الآن .

الجيزه :

ولم يقف بحث ابن عبد الحكم في تاريخ العمارة الاسلامية عند مدينة الفسطاط ، وإنما تناول كذلك بالدراسة نشأة الضواحي التي صحبت قيام هذه العاصمة ، وشرح التطور الذي طرأ على معالمها كذلك . واتبع ابن عبد الحكم في دراساته الجديدة نفس المنهج الذي سار عليه في تتبعه لعمران الفسطاط . فأشار إلى أن أول ضاحية قامت إلى جانب الفسطاط هي « الجيزة » على الضفة المقابلة للعاصمة على النيل . وذكر هذا المؤرخ سبب بناء هذه الضاحية ، مبيناً أن قبيلة

همدان ومن تبعها أعجبها مكان الجيزة ، واتخذت لنفسها منازل هناك دون أن تنضم إلى سائر القبائل فى الفسطاط .

وجاء فى سرد ابن عبد الحكم لهذه الحادثة ظاهرتان ، مازالتا تلعبان دورا هاما فى حياة القاهرة اليوم . أما الظاهرة الأولى فهى أن ابن عبد الحكم علل اختيار همدان للجيزة ، على أساس طيب هوائها ، وهو أمر تتصف به الجيزة فى أيامنا الحاضرة . والظاهرة الثانية أن عمرو بن العاص نظم أسباب الاتصال بين الفسطاط والجيزة ، وذلك بإعادة الجسر الذى كان مقاما على النيل ، ومازالت هذه الظاهرة الثانية موضع اهتمام السلطات فى العاصمة على مــــر العصور ، حتى الوقت الحاضر ، لربط أطراف العاصمة مع بعضها بعضا .

وتتبع ابن عبد الحكم مظاهر نمو الجيزة ، موضحا أسباب هذا النمو ومراحله . ومن الطريف أن التعليل الذى وصل إليه ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع لا يختلف عن الدوافع التى مازلنا نشهد قوتها فى العمل على اتساع القاهرة اليوم . إذ ذكر هذا المؤرخ أن الفسطاط ازدحمت بالسكان على عهد عمرو بن العاص نفسه ، ولاسيما فى المنطقة المحيطة بالمسجد ، وأن عمرا نصح القبائل المتنافسة على البناء فى الفسطاط بالانتقال إلى الجيزة ، مبيناً لهم كثرة المناطق الصالحة للسكنى هناك .. ولذا هرع الناس إلى الجيزة ، وشيدوا لهم المنازل على ضفة النيل ، حتى غدت المساكن على الضفتين آهلة بالسكان .

وأشاد ابن عبد الحكم بتطور العمارة فى الجيزة ، وتفانى السكان فى تجميل مساكنهم حتى صارت قبلة أنظار علية القـــوم للراحة والاستجمام . ودوّن ابن عبد الحكم هذا التطور بأسلوبه الشائق ، جريا على عادته فى إبعاد الملل عن القارىء ، وإثارة خياله لماضى التليد . واختص ابن عبد الحكم منزل شخص بالجيزة ، اسمه « عمير ابن مدرك » بالذكر ، ممتدحا حديقة هذا المنزل ، وما حفلت به من أصناف الفاكهة النادرة ، حتى أن والى مصر سنة ٦٥هـ/٦٨٥م ، وهو عبد العزيز بن مروان دأب على التردد على هذا المنزل فى الجيزة، ونقل الكثير من أشجاره إلى قصره .

وهناك جانب طريف أشار إليه ابن عبد الحكم فى دراساته لنمو الفسطاط وضواحيها ، إذ ذكر أن السلطات فى العاصمة خصصت ديواناً لتسجيل كل زيادة فى عدد السكان ، فعينت على كل قبيلة بالفسطاط رجلا من أهلها ، مهمته إحصاء مواليدها ، والنازلين معها ، ثم تسجيل كل ذلك بالديوان . وبلغت دقة ابن عبد الحكم - عند ذكره للظاهرة السالفة - درجة عالية ، حتى إنه ردد اسم شخص تولى مهمة الإحصاء على قبيلة معافر ، وهى من أقوى القبائل المقيمة بالعاصمة .

وعلى هذا النحو من الميل إلى ذكر التفاصيل الطريفة ، تابع ابن عبد الحكم كشف الجوانب التى تتعلق بمسقط رأسه وتاريخها ، من حيث اتساع أرجائها وتنظيم السلطات للحياة فيها . ومن هذه المعلومات

التى حصل عليها ابن عبد الحكم نتيجة جده ومثابرته فى دراسة لمعالم الفسطاط ، أنه أشاد بوجود موظف مقيم بجزيرة الروضة ، ويعمل تحت امرته خمسمائة عامل بصفة دائمة ، ومهمتهم المبادرة إلى إطفاء أى حريق قد يشب فجأة فى البلد ، أو لهدم المبانى التى يخشى منها على سلامة الناس . وهذا اللون الأخير من الدراسة لا يتأتى إلا لشخص أحب الفسطاط ، وعاش على أرضها ، وهام شغفا بأصولها وأمجادها ، وذلك على نحو ما اتصف به المؤرخ ابن عبد الحكم . إذ تنبض كل فقرة من فقرات بحثه عن الفسطاط عن إيمانه العميق بعظمة هذه العاصمة ، التى خطت سريعاً فى ميدان المجد والحياة الإسلامية الزاهرة ، وكرّس وقته وجهده ليسجل تاريخ هذه المدينة التى حملته طفلا رضيعا ، وشابا يافعا ، ثم كهلا فانيا ، وأخيرا احتوت أرضها جثمانه الطاهر ، حيث توفى بها سنه ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م ، ودفن هناك إلى جانب قبر أبيه بجوار قبر الامام الشافعى مما يلى القبلة .

الفصل العاشر

الدراسات الإقليمية

وصف الريف :

تصور شخصية ابن عبد الحكم ومجهوداته فى بعض الأبحاث التى قام بها جانباً من حركة كبرى سادت أرجاء الدولة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى ، قوامها ظهور نزعات إقليمية عند سكان هذه الدولة ، واهتمام علماء كل قطر بدراسة بلادهم وأقاليمهم . وساعد على انطلاق هذه الحركة تشجيع بعض الحكام المحليين لعلمائهم على دراسة مصادر القوة والضعف فى البلاد التى يحكمونها ، وتوضيح مواردها الطبيعية والاقتصادية كذلك . وتأثر ابن عبد الحكم بهذا الاتجاه الجديد الذى ترك أعمق الآثار فى خدمة النهضة الثقافية فى الدولة الإسلامية ، وفتح أمامها آفاقا واسعة كانت مغلقة من قبل . إذ تنافس العلماء فى كل قطر على كشف العوامل التى تدعم أركان الحياة فى أوطانهم ، وهو الأمر الذى تمخض عنه ظهور سيل من المؤلفات التى تصف الأقاليم الإسلامية وصفا دقيقاً رائعاً ، سواء من حيث بيئتها الطبيعية أو الاجتماعية .

ولم يقف ابن عبد الحكم بمعزل عن هذا التيار الفكرى الدافق فى القرن الثالث الهجرى ، وكرس جزءا غير قليل من وقته وجهده لخدمة هذا الميدان من الدراسات الاقليمية ، المتعلقة بوطنه مصر . ووجد هذا المؤرخ أمامه مادة دسمة فريدة تفيده فى دراسته الاقليمية، لأن مصر لها ماض عريق ، وتنعم بخصائص طبيعية خالدة، لم تنل منها مرّ السنون أو العصور. ومن ثم استهل ابن عبد الحكم دراساته ببحث مبتكر ، دوّن فيه فضائل مصر ، والتى ظل المعاصرون له يتناقلونها عن أجدادهم وأجداد أجدادهم ، اعتزازاً منهم بما حبتهم به الطبيعة من مميزات إقليمية باهرة .

وأول شيء استرعى نظر ابن عبد الحكم هو خصوبة أرض وطنه ، وما تفيض به هذه الأرض من خير عميم . ولذا جمع أولا الأقوال التاريخية التى تشيد بهذه الظاهرة الاقليمية ، وكيف أن هذه الأقوال تنطبق على كل عصر ، حتى أيامه فى القرن الثالث الهجرى . فروى ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع قول عبد الله بن عمرو فى وصف مصر : « من أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنمو ثمارها »

ويمثل هذا الاستشهاد روح الوطنية المؤمنة عند ابن عبد الحكم ، حيث بذل الجهد العظيم فى انتقاء مثل هذه الأقوال المأثورة ، ثم عرضها بحيث توضح دراساته فى ميدان الأبحاث الاقليمية .

وانتقل ابن عبد الحكم بعد ذلك إلى دراسة جانب هام من جوانب الحياة الاقتصادية فى مصر ، وبيان مدى ارتباطها بالناحية الاجتماعية . إذ صور حياة الريف فى مصر ، قديما وعند دخول العرب مصر ، ثم بعد استقرار الفتح العربى للبلاد . وأثبت ابن عبد الحكم أن ريف مصر لم يفقد روعته وجاذبيته للناس عبر المراحل الثلاث التى درسها ، فشرح هذا المؤرخ غنى ريف مصر قديما ، وكثرة السكان به ، وعند فتح العرب لمصر ذكر وثيقة هامة توضح تنظيم السلطات العربية لانتقال الجند العرب إلى القرى ، وهى الوثيقة التى جاءت على لسان عمرو بن العاص لجنده ، والتى تعتبر من أهم الدراسات الاقليمية التى قام بها ابن عبد الحكم . ثم اتخذ هذا المؤرخ الوثيقة السالفة الذكر تمهيداً لدراسة المرحلة الثالثة ، وهى الأهم ، والتى شرح فيها امتزاج العرب بالسكان الأصليين فى ريف مصر ، وحدد المناطق التى اتجهت إليها كل قبيلة من القبائل العربية .

ويعتبر ابن عبد الحكم بذلك واضع أساس دراسة تطور المجتمع العربى فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وهى من أهم مراحل التاريخ المصرى حيث أخذت البلاد تكتسب طابعها العربى ، والذى ما زال يعلو ويشتد ، حتى صارت مصر أم البلاد العربية وقائدة سفينتها إلى ما فيه السلامة والعزة . وتتبع ابن عبد الحكم تغلغل

العرب فى ريف مصر تتبعاً دقيقاً لا يمكن أن يصبر عليه إلا عالم من أهل مصر نفسها ، حريص على كشف الأصول الأولى للمجتمع العربى الذى عاش فى ظله ورحابه . ويمكن للباحث فى الوقت الحاضر الإعتماد على دراسة ابن عبد الحكم فى ميدان تاريخ المجتمع العربى فى مصر ، وأن يرسم خريطة واضحة المعالم ، على هدى المعلومات التى ذكرها هذا المؤرخ ، تمثل توزيع القبائل العربية فى ريف مصر ، وأن يتخذ من ذلك بداية طيبة لعمل ممتاز يقوم به فى خدمة القومية العربية ونشاطها المعاصر .

وتناول ابن عبد الحكم موضوعا طريفا فى ميدان الدراسات الاقليمية ، يفيد الباحث اليوم أيضاً فى ميدان تربية الحيوانات ومعرفة أصولها . إذ تحدث هذا المؤرخ عن تربية العرب فى ريف مصر للخيول التى جلبوها معهم ، وحرصهم على معرفة أنسابها ، وأشار إلى إحدى أصول هذه الخيول واسمه الأشقر ، وما امتازت به سلالة « الأشقر » من السرعة والانطلاق .

وذكر ابن عبد الحكم خيولا أخرى اشتهرت بها مصر ، إلى جانب الأشقر ، منها « ذو الريش » فرس العوام بن حبيب اليحصبى » و « الخطّار » ، فرس لبيد بن عقبة السومى ، و« الذّعلوق » فرس حمير ابن وائل السومى ، وعجلى فرس كانت لعك ، ولها يقول الشاعر :

سبق بين الأقوام عجلى .. سبقتهم وهى حُبــلى .

وأشاد ابن عبد الحكم أيضاً بخبرة أهل مصر رجالا ونساء بمعرفة خيولهم ، مهما غابت عنهم ، وروى عن ذلك ما يلى : « كان عبد العزيز بن مروان قد طلب « الخطار » من لبيد بن عقبة ، فرفض أن يجيب طلبه . ثم حدث أن خرج عقبة لغزو شمال إفريقية — أى بلاد المغرب — ، ومات بها ، وترك فرسه الخطار هناك . ولما ولى موسى بن نصير بلاد المغرب بعد إتمام فتحها ، بعث إلى عبد العزيز ابن مروان والى مصر خيلا وهدايا من بينها « الخطار » . ولكن أحدا لم يعرف ذلك الفرس حيث طالت معرفته وذنبه . وقال نفر من الحاضرين : أنه لن يعرف « الخطار » غير ابنة لبيد ، وكانت بمصر فبعث إليها عبد العزيز ابن مروان ، وطلب منها أن تبحث عن « الخطار » بين الخيول ، الذى بعث بها موسى بن نصير ، فنظرت هذه السيدة إلى الخيول ، وأخرجت منها فرس أبيها لخبرتها وفطنتها » .

النيل الخالد :

وكان الموضوع الثانى الذى انتقل ابن عبد الحكم إلى بحثه فى ميدان الدراسات الاقليمية هو نهر النيل . اذ لا يمكن لهذا المؤرخ الوطنى أن يغفل شأن هذا النهر الذى يعتبر مصدر حياة مصر والحارس الأمين على نهضتها وتقدمها . وتجلت روح الوطنية مرة أخرى عند معالجة ابن عبد الحكم لتاريخ نهر النيل ، حيث جمع الروايات التى تشيد بهذا النهر ، وتوضح أهميته وأمجاده ، والتى تفضل النيل على غيره من الأنهار

فى العالم . وجمع هذا المؤرخ الأقوال المأثورة عن النيل فى الباب الذى خصصه لذكر فضائل مصر ، والإشادة بمكانتها .

واستهل ابن عبد الحكم دراساته عن النيل مبينا أثره فى حياة البلاد الاقتصادية ومنحها النماء والازدهار . ثم أشار إلى حقيقة هامة ، ما زالت توليها الأجيال حتى وقتنا الحاضر العناية البالغة ، وهى اهتمام المصريين بفيضان النيل ، ومعرفة منسوب المياه . فذكر ابن عبد الحكم ان أرض مصر كانت تروى من مياه النيل عندما يبلغ منسوب المياه فيه ستة عشر ذراعا . وصار هذا البحث تقليداً نهج عليه سائر المؤرخين الذين خلفوا ابن عبد الحكم ، حيث حرصوا على تسجيل مناسيب النيل كل عام ، وذلك طوال المرحلة الزمنية التى نهضوا لدراستها وتدوين أخبارها .

ومزج ابن عبد الحكم دراساته عن النيل بالإشارة إلى القصص الذى ردده مواطنوه عن التقاليد التى ارتبطت بفيضان هذا النهر . واختار هذا المؤرخ قصة عروس النيل ، التى تروى أن أهل مصر كانوا يلقون بعروس بكر فى النيل عند فيضانه ، وأن عمرو بن العاص أبطل هذه العادة عند دخوله مصر ، وأنه ترتب على ذلك تأخر الفيضان . واستطرد ابن عبد الحكم فى سرد هذه القصة موضحا أن الخليفة أقر عمرو بن العاص على رأيه ، لأن الإسلام يجب ما سبقه من عادات وأن النيل لم يلبث أن جرى وفاض ، دون إلقاء عروس فيه ، وبلغ

منسوب المياه ستة عشر ذراعا ، وهو رقم يدل على وفرة المياه . ولذا استبشر الناس خيرا بالعهد الجديد ، وفرحوا بنعمة الإسلام ، وتابعوا احتفالاتهم السنوية بعيد وفاء النيل .

ولا شك أن هذه القصة التي رواها ابن عبد الحكم تعتبر من القصص الشعبية التي تروى من باب تعظيم الأشياء دون أن يكون لها سند صحيح ، إذ لا يعقل أن يقوم المصريون بهذه العادة ، التي تنطوى على شيء من الوحشية ، والتي لا يقبلها العقل فى بلد متحضر مثل مصر ، ويرجح أن هذه القصة ، إن كان لها شيء من الأساس ، فإنما كانت تلك العروس ، التي يلقى بها فى النيل شيء رمزى ، أى على هيئة تمثال ، أو ما يشبهه ، وأن ذلك كان يحدث فى المهرجان الخاص بالاحتفال بعيد وفاء النيل . ثم لم تلبث الروايات أن حرّفتها ، وأضفى عليها « القصاص » بمصر ، هذا اللون من الرواية ، التي نقلها ابن عبد الحكم ، من باب تشويق العامة ، وجذب أنظارهم إلى هذا العيد القومى الخالد .

حفر الخليج :

وأفرد ابن عبد الحكم فصلا قيما عن تاريخ القناة التي ربطت النيل بالبحر الأحمر ، والتي صار يطلق عليها اسم « خليج أمير المؤمنين » . وتجلى فى هذا البحث مرة أخرى سعة اطلاع هذا المؤرخ ، ودراساته العميقة لشئون وطنه . إذ لعبت هذه القناة دورا هاما فى تاريخ مصر ، حيث تجدد الاهتمام بشئونها عبر العصور المختلفة ، ولاسيما فى القرن

الثالث الهجرى، الذى دوّن فيه ابن عبد الحكم دراساته الاقليمية عن بلاده . ومن ثم لم يكن فى استطاعة هذا العالم المؤرخ ان يغفل أمر تلك القناة ومكانتها ، وعمد إلى أن يسهم فى خدمة مواطنيه ؛ بذكر بحث فى تاريخها وتطورها إلى أيامه .

وقد أوضح ابن عبد الحكم أن الدافع على اهتمام السلطات العربية فى مصر بشئون هذه القناة هو نفس الدافع الذى حفز ما سبقها من الحكومات ، وهو تنشيط أسباب التجارة بين مصر وبلاد العرب . وتطلب هذا البحث عودة ابن عبد الحكم إلى تاريخ مصر التجارى قبل الإسلام ، وجمع الروايات التى تصور العلاقات التجاريه بين وطنه وبلاد العرب . وهنا كشف هذا المؤرخ عن دراية عمرو بن العاص بشئون مصر التجارية قبل الإسلام ، لأنه وفد إليها فى الجاهلية ، وكيف عمد هذا القائد العربى بعد أن فتح مصر إلى إعادة مجد مصر التجارى . اذ أوضح ابن عبد الحكم معرفة عمرو بن العاص بوجود القناة التى ربطت النيل بالبحر الأحمر ، وكيف سارت فيها سفن مصر القاصدة بلاد العرب للمتاجرة قبل الإسلام .

وانتقل ابن عبد الحكم من هذه الإشارات الطريفة الخاصة بتاريخ القناة قبل الاسلام ، إلى بيان أسباب اهتمام السلطات العربية بها بعد فتح مصر . ونسب هذا المؤرخ إلى عمرو بن العاص مرة ثانية القيام بالدور الأول والرئيسى فى إعادة الحياة إلى هذه القناة التجارية ، التى

أصابها الإهمال أيام حكم الروم ، وطمرت الرمال أجزاء كبيرة منها .
وأشار ابن عبد الحكم فى جلاء إلى أن أحد المهندسين المصريين هو
الذى تولى إرشاد عمرو إلى أيسر السبل لإعادة حفر هذه القناة ،وأن
هذا العمل تم فى سرعة مدهشة .

وهكذا جاءت أبحاث ابن عبد الحكم فى ميدان الدراسات
الاقليمية مساهمة جلية فى حركة التأليف الكبرى التى سادت الدولة
الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى ، وسبيلا رفع من شأن وطنه بين
أقاليم العالم الاسلامى .

الفصل الحادى عشر

الجناح الايسر للاسلام

أخبار بلاد المغرب :

يعتبر القسم الذى عقده المؤرخ ابن عبد الحكم عن أخبار بلاد المغرب صفحة رائعة فى تاريخ مصر من أجل خدمة العروبة وإعلاء كلمتها ، والعمل على توسيع دائرتها ، ونشر حضارتها على امتداد أهم بحار العالم القديم ، وهو البحر المتوسط . إذ تكشف الروايات التى ذكرها ابن عبد الحكم عن فتوح العرب لبلاد المغرب عن الدور الجليل الذى قامت به مصر فى تلك السبيل ، وكيف أنها كانت القاعدة الكبرى التى خرجت منها حملات الفتح ، ونقطة تجمع الإمدادات ، والرأس المدبرة لخطط الغزو . فكان ولاة مصر منذ أولهم وهو عمرو بن العاص يدركون أهمية بلاد المغرب ، ويرون أن بقاء الروم بها ، يمثل خطرا على دولتهم الناشئة ، على نحو ماكانت عليه الحال فى مصر قبل الفتح العربى لها .

ونال ابن عبد الحكم قصب السبق على غيره من مؤرخى العرب فى تسجيل فتح العرب للمغرب فى صورة شاملة ، لأنه وجد فى وطنه

مصر ينابيع دافقه بالمعلومات الدقيقة الصادقة ، سواء من أناس اشترك آباؤهم وأجدادهم فى هذا الميدان العظيم ، أو من رجال بلاد المغرب أنفسهم ، ممن وفدوا إلى مصر طلبا للعلم ، واستقى منهم هذا المؤرخ الكثير عن أخبار بلادهم. ولم يتوافر هذين العنصرين لغير ابن عبدالحكم من مؤرخى العرب ، وصارت معلوماته تتسم بالدقة الشاملة ، فضلا عن أصالتها وقيمتها التاريخية الجليلة . ثم أن المنهج الذى اتبعه هذا المؤرخ العالم فى سرد أخبار المغرب يجرى وفق قواعد تجنب القارىء التيه وسط التفاصيل التى لا تغنيه نفعاً ، وإنما تراعى الاختصار الموفى بالغرض ، وتربط الباحث دائماً بما قامت به مصر من نشاط فى سبيل فتح العرب لبلاد المغرب ، وجهود أبنائها فى نشر الإسلام بين أهله ، حتى صار المؤرخون والجغرافيون العرب يطلقون على تلك البلاد اسم « الجناح الأيسر للاسلام » ، دلالة على علو شأن أبنائها فى خدمة الدين الاسلامى وإعزاز كلمته .

ومما يزيد فى قيمة الفصل الذى عقده ابن عبد الحكم عن فتح العرب لبلاد المغرب ، أنه برغم إيجازه ، جاء خلوا من المبالغات ، أو الأخطاء التى وقع فيها غيره من المؤرخين . إذ كان لالتقاء هذا المؤرخ مع أبناء المغرب فى مصر ، ومناقشاته معهم أثر عظيم فى نقد الروايات ، وذكر السليم منها ، مما جنب الباحث المتاعب التى لا داعى لها . والمعروف أن أسرة ابن عبد الحكم تولت رئاسة فقه الإمام مالك ،

وهو المذهب الذى ساد بلاد المغرب ، وصار بيتهم كعبة يحج إليها ليس طلاب المغرب فحسب ، وإنما هرع إليها كبار العلماء ، وأصحاب السلطان كذلك للتزود من ثقافة رجالها الأفذاذ . وبذلك وجد ابن عبد الحكم عند آل بيته أيضا كنوزا من المعلومات عن هذا القطر الشقيق ، الذى انضم إلى رقعة الدولة العربية الناشئة ، وصار يقف مع مصر صفا واحدا فى سبيل إعزاز العروبة ، ورفع رايتها .

وتجلت خبرة ابن عبد الحكم بأحوال بلاد المغرب فى توضيحه لأدوار القادة العرب الذين تولوا عمليات الفتح ، وذلك فى ثقة تامة ، ودقة كاملة . إذ المعروف أن فتح بلاد المغرب استغرق سنوات طويلة ، تخللتها مراحل توقفت فيها أعمال الفتح ، بسبب المتاعب الداخلية التى تعرضت لها الدولة العربية . وترتب على هذه الظاهرة تضارب الروايات سواء من حيث أخبار قادة الفتوح ، أو من حيث سنوات الحملات التى قاموا بها . ولكن ابن عبد الحكم تجنب مثل هذه الأخطاء بفضل اطلاعه الواسع على أخبار بلاد المغرب ، ولاتصاله الوثيق أيضا بأبنائها .

وكشف ابن عبد الحكم أيضا عن حقائق لها قيمتها فى معالجته لأخبار فتح العرب لبلاد المغرب ، إذ أوضح فى جلاء انضمام أهل هذه البلاد إلى الجيوش العربية ، وكيف قام القادة العرب بدور هام فى إبعاد أولئك الأهالى عن دسائس الروم ، الذين حاولوا مرارا

وتكرارا كسب السكان المحليين إلى جانبهم ضد العرب . وجاءت إشارات هذا المؤرخ فى تلك السبيل دقيقة وقيمة ، حيث أشاد بأسماء زعماء أهالى بلاد المغرب ، الذين ساعدوا العرب ، كما ذكر فى ثقة مدهشة الأقسام التى ينتمون إليها . ذلك أن سكان بلاد المغرب ، الذين عرفوا باسم البربر ، انقسموا قسمين كبيرين ، أحدهما يعرف بالبتر ، وهم سكان الجهات الصحراويه ، والبرانس ، وهم سكان الجهات الزراعية . وأظهر ابن عبد الحكم أن البتر ، أى سكان الجهات الصحراوية كانوا أسبق من البرانس فى مساعدة العرب ، لأن الأخيرين وقعوا فريسة للدعايات التى نشرها الروم ، على حين أن البتر ، نظراً لبعدهم عن الروم لمسوا فى سرعة صدق نوايا العرب ، ولذا شدوا من أزرهم ، وساعدوهم على إحراز النصر .

التاريخ الحربى للحملات الاسلامية :

وتعتبر دراسة ابن عبد الحكم للفتح الاسلامى للمغرب لونا من قدرة هذا المؤرخ الفذ على معالجة التاريخ الحربى للحملات الاسلامية فى تلك البلاد . ومن أجل ذلك سلك ابن عبد الحكم طريقة مثلى ، ما زالت المراجع ، ولا سيما الحديثة تتبعها فى أبحاثها الخاصة بامتداد الاسلام والعروبة إلى بلاد شمال أفريقيا . إذ اتخذ هذا المؤرخ من شخصيات القادة العرب الذين تولوا شئون الحملات الاسلامية على شمال إفريقيا محوراً للروايات المتعلقة بالفتوح ، وما امتلأ به نشاطهم الحربى

من خطط وفنون ، بحيث يستطيع القارىء الحصول على صورة واضحة المعالم للتاريخ الحربى العربى فى هذا الشطر من الميدان الإفريقى .

وأسهم ابن عبد الحكم بعرضه لحيـــاة القادة العرب فى الميدان الإفريقى ، مساهمة جليلة فى بناء التاريخ الحربى للدولة العربية الاسلامية ، وضرب الأمثلة العديدة على مدى التعاون الذى ساد هيئة أركان الحرب عند السلطات العربية . فالمعروف أن الحملات الاسلامية على شمال افريقيا استغرقت وقتا طويلا ، كما شملت عهود عدد كبير من خلفاء الدولة الأموية ، وأن كثيرا من تلك الحملات أيضا أصابها الفشل ، وأن هذه الأمور والسمات كلها اقتضت اتخاذ شخصية القادة محورا للدراسة ، وربط الأحداث بعضها بعضا ، على الرغم من بعد مسارحها وتواريخ وقوعها .

واستهل ابن عبد الحـكم تدوينه للتاريخ الحربى لنشاط المسلمين فى شمال إفريقيا بذكر حملة معاوية بن حديج ، ثم عقبة بن نافع ، ثم أبو المهاجر ، ثم حسان بن النعمان وأخيرا موسى بن نصير . وأجاد هذا المؤرخ إجادة كبرى فى دراسة حياة هؤلاء القادة وأعمالهم ، بحيث ترك بحثا فريدا قوامه المزج بين التيارات العديدة التى امتلأت بها الدولة العربية الاسلامية فى الداخل والخارج ، وكيف استطاع هؤلاء القادة تحقيق أهداف دولتهم آخر الأمر ، وإقرار راية الاسلام فى أرجاء شمال إفريقيا .

وقسم ابن عبد الحكم دراساته للتاريخ الحربى الإسلامى فى شمال إفريقيا إلى ثلاثة أقسام ، أوضح فى القسم الأول منها محاولات القادة العرب لخلق مراكز استقرار لجيوشهم فى البلاد الإفريقية ، وذكر فى القسم الثانى منها انضمام الأهالى المحليين إلى الجيوش العربية بعد تحررهم من ربقة الروم ، وفى الثالث والأخير كشف ابن عبد الحكم فى جلاء عن تكوين فرق من البربر أنفسهم ، سكان البلاد الأصليين ، وانضمامهم إلى الجيوش العربية لإعلاء كلمة الإسلام ورفع رايته فى كل مكان .

وربط ابن عبد الحكم فى دراساته للقسم الأول بين حملات عمرو ابن العاص ، وخلفه عبد الله بن سعد على مصر ، وبين الحملة التى قام بها معاوية بن حديج على عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان . إذ استفاد القائد الأخير من المعلومات التى وجدها فى مصر عن شمال إفريقيا ، وزحف فى حملة سريعة ، وصل فيها إلى تونس ، وتأكد من صدق الأخبار التى جمعها قبلا من هـذه الأرجاء . وبعبارة أخرى شرح ابن عبد الحكم طلائع النشاط الحربى المنظم فى شمال إفريقيا ، مبيناً أن الخلافة الأموية عمدت إلى إعداد الجيوش عقب استقرار الأمور لها ، وأنها مهدت السبيل أمام هـذه الجيوش بحملة معاوية ابن حديج ، التى تعتبر من الحملات الاستطلاعية الكبرى . والمعروف أن هـذا القائد الأموى كان قد تدرب فى جيش عبد الله بن سعد بن

أبى سرح والى مصر ، وكان فى نفس الوقت من أهل الثقة التامة لدى الخلافة الأموية ، وهى أمور تجعله خير من يصلح لاستئناف النشاط الحربى فى شمال إفريقيا .

وانتقل ابن عبد الحكم إلى ذكر النتائج الكبرى التى بدأت تملأ صفحات التاريخ الحربى الإسلامى فى الميدان الإفريقى . إذ جعل شخصية عقبة بن نافع الفهرى ، الذى خلف معاوية بن حديج فى هذا الميدان ، المحور الأساسى لدراسة خطط المسلمين الحربية ، واتجاه هذه الخطط إلى العمل على إقرار أقدام المسلمين فى شمال إفريقيا . وربط ابن عبد الحكم بين أصول هذه الخطط العربية ، أو التفكير الحربى الجديد وبين عقبة بن نافع الفهرى ، مبيناً أن هذا القائد قضى زهرة شبابه فى الميدان الإفريقى ، وصار خبيراً بأحواله ، عليما بأمثل السبل التى تكفل للمسلمين تحقيق أهدافهم فيه . وأشار ابن عبد الحكم إلى أن عقبة خرج من دراساته ، ومن المعلومات التى جمعها عن حملة معاوية ابن حديج بأنه لابد من خلق قاعدة للمسلمين فى قلب إفريقية (تونس) ، تقيم فيها الجيوش الإسلامية ، بدلا من عودتها إلى مصر ، ولتكون هذه القاعدة بالتالى مركزاً لتلقى الإمدادات من مصر ، ثم الانطلاق منها إلى سائر أرجاء المغرب .

وتتبع ابن عبد الحكم حملة عقبة بن نافع الفهرى خطوة خطوة ، منذ انطلاقها من مصر ، حتى وصل إلى إفريقية . ويجد القارىء للروايات

التى أوردها هذا المؤرخ فى تلك السبيل مادة دسمة لشرح خطة عقبة الحربية ، إذ تجنب هذا القائد العربى طريق الساحل ، خوفا من هجمات الروم البحرية ، ولأنه استهدف الوصول بأسرع ما يمكن إلى قلب إفريقية (تونس) ، والعمل هناك على تأسيس قاعدة للجيوش الإسلامية ، تصلح لتحقيق المشاريع الحربية التى جاشت بها نفسه ، وآمن بها بعد دراسة وتمحيص .

ويعتبر البحث الذى قام به ابن عبد الحكم عن نشاط عقبة ابن نافع فى إفريقية (تونس) ، وتأسيسه بهـا لمدينة القيروان ، واتخاذها قاعدة للمسلمين ، فضلا قيما عن أهداف المسلمين الحربية من بنائهم للحواضر أو القواعد العسكرية فى كل مكان يتم فتحهم له ، أو يستهدفون الاستقرار به . إذ اتخذ العرب من هذه القواعد الجديدة ، مراكز لنشر الإسلام والثقافة الإسـلامية بين أهالى البلاد التى خضعت لهم إلى جانب إفادتهم منها فى تأمين الفتوح والمحافظة على سلامة الجند . ومن ثم انفرد العرب فى تاريخهم الحربى بهذا المظهر العمرانى الذى صحب تأسيس قواعدهم العسكرية ، إذ سرعان ماتحولت مراكز استقرار جيوشهم إلى مدن زاهرة ، حافلة بألوان الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، مثلما حدث فى البصرة والكوفة فى العراق ، والقيروان فى إفريقية (تونس) على نحو ما أشاد به ابن عبد الحكم .

ودعّم ابن عبد الحكم هذه الحقيقة السالفة الخاصة بتطور القواعد الإسلامية، عندما شرح خطة عقبة لتأسيس القيروان وإظهار عزمه على الاستقرار بها . فذكر أن المكان الذى وقع عليه اختيار هذا القائد كان مليئاً بالوحوش الضارية والحيوانات المؤذية ، ولكن صمم على النزول فيه ، والاستقرار به لما لمسه هناك من فوائد عظمى تحقق أغراضه الحربية والاجتماعية . وأثبتت الأحداث صدق الروايات التى أوردها ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع ، إذ سرعان ما أصبح تأسيس القيروان حـــداً فاصلا بين عهدين ، الأول وفيه دأبت الجيوش على العودة إلى مصر بعد الانتهاء من حملاتها فى شمال إفريقيا ، والثانى وفيه عمدت الجيوش إلى الاستقرار فى القيروان ، ثم العمل على دراسة الخطط والمشاريع التى تكفل لها متابعة نشاطها الحربى ، والتوغل فى أرجاء البلاد الإفريقية .

ويكاد ينفرد ابن عبدالحكم بدقة المعلومات التى أوردها فيما يتعلق بانضمام أهالى شمال إفريقيا ، عقب تأسيس القيروان إلى الجيوش العربية . ويرجع السبب فى ذلك إلى عاملين ، أولهما أن والد هذا المؤرخ زوّده بالكثير من الروايات التى نقلها بنفسه عن كبار أهل المغرب الذين وفدوا إلى مصر ، وكانوا على خبرة عالية بشئون بلادهم وتاريخها ، والثانى أن ابن عبد الحكم نفسه ربط بين هذه الروايات التى تركها له أبوه وبين أحوال مصر التى عرف أسرارها الخفية ،

لاطلاعه الواسع على مصادرها والقائمين بأمرها . وجعل ابن عبد الحكم شخصية القائد العربى ، دينار أبى المهاجر ، الذى خلف عقبة ابن نافع الفهرى فى الميدان الإفريقى ، مرآة ينعكس عليها التطور الجديد الذى ساد بلاد إفريقية (تونس) نتيجة تأسيس القيروان بها. فذكر أن هذا القائد الجديد تولى منصبه من قبل السلطات العربية فى مصر ، التى لمست ضرورة إرسال شخصية أخرى ، غير عقبة ، فى استطاعتها الاتصال بالأهالى المحليين وزعمائهم ، وتحبيبهم فى الإسلام.

وكشف ابن عبد الحكم بهذه الرواية السالفة الذكر عن حقيقة هامة ، وهى أن أولى الأمر فى مصر ، كانوا على صلة دائمة بأحوال شمال إفريقيا ، ويرسمون الخطط لنشر الإسلام والعروبة بين أهلها وفق تطور الأحداث ، وما تتطلبه الأوضاع والملابسات الزمنية . فإذا كان عقبة قد أسس القيروان ، فإن دوره قد انتهى بذلك ، وأن الإدارة الجديدة لهذه القاعدة يجب أن توضع فى أيدى شخصيات تجمع بين الخبرة بالحرب والدراية بالسياسة والشئون المدنية . ومن ثم جاء الفصل الذى كتبه ابن عبد الحكم عن حملة دينار أبى المهاجر حلقة ربطت ما عجزت المراجع السابقة له عن توضيحه ، عند ذكرها لأحداث الفتح العربى لشمال إفريقيا ، كما أمدّت الباحثين من بعد هذا المؤرخ أيضا بالأساس السليم لدراسة هذا الميدان الاسلامى الناشىء .

وتجلت مقدرة ابن عبد الحكم على عرض الروايات التاريخية

التى تجمعت لديه فيما يتعلق بالموضوع السالف الذكر، حين كشفه عن نجاح دنيار أبى المهاجر فى اكتساب أعظم زعماء البربر، وهو كسيلة إلى جانب السلطات الإسلامية فى القيروان. إذ كان الروم يعملون على ضم شخصيات البربر إليهم، واتخاذهم عوائق تحول دون امتداد الفتوح الإسلامية الى بلادهم. ولكن ابن عبد الحكم ألقى ضوءا باهرا على مقدرة دينار أبى المهاجر فى هدم التحالف بين الروم والبربر كما ذكر نشاط هذا القائد العربى فى دراسة أحوال إفريقية (تونس) والجهات المجاورة لها. ومن الحقائق الهامة التى رددها ابن عبدالحكم فى هذا الموضوع أن دينار أبى المهاجر هو أول من جعل مقره الدائم فى القيروان، صيفا وشتاء، وأن العادة جرت من قبله على عودة الجيوش إلى مصر بعد الانتهاء من نشاطها الحربى. وبعبارة أخرى أوضح ابن عبد الحكم أن القيروان استهلت مجدها السياسى والحربى على أيام دينار أبى المهاجر، وأخذت تضطلع برسالة نشر الإسلام فى الجهات المجاورة لها.

وتابع ابن عبد الحكم دراساته لانتشار الاسلام فى شمال إفريقيا، محاولا ذكر التفاصيل التى تنير للقارىء الطريق، وتعاونه على فهم الظواهر، التى بدت أحيانا فجائية، وكأنما لا سند لها من واقع الأمور. وهذا المنهج الذى اتبعه ابن عبد الحكم يضيف مرة أخرى إلى ما سبق أن تمتع به من مواهب فـــذة، وقدرات عالية على

تمحيص الروايات ، وتقديم ثمار اطلاعه الواسع للأجيال الراغبة فى الدراسة العلمية والإفادة من مجهوده الثقافى العظيم . فكشف ابن عبد الحكم الستار عن تطور فجائى خطير وقع فى الميدان الإفريقى ، قوامه أن عقبة بن نافع الفهرى استطاع أن يعود إلى القيادة فى القيروان بعد انتهاء ولاية مسلمة بن مخلد والى مصر ، وهو الذى سبق أن عزل عقبة ، وعين مكانه دنيار أبى المهاجر . وناقش ابن عبد الحكم هذا التطور الخطير مناقشة علمية رائعة ، تشهد له بالخبرة الواسعة بشئون وطنه مصر ، ودوره فى نشر العروبة والاسلام فى شمال إفريقيا . فذكر هذا المؤرخ عدة روايات توضح أن أولى الأمر فى مصر أظهروا لعقبة وهو ببلادهم ، فى طريقه إلى القيروان ، مخاوفهم منه وأوضحوا له شكهم فى مقدرته على فهم الأوضاع الجديدة فى إفريقية ، واستطاعته الإفادة منها .

وعلى هذا النحو من المناقشة الرائعة استمر ابن عبد الحكم فى عرضه لأسرار التطور الفجائى الذى وقع فى الميدان الإفريقى ، وبيان نتائجه . فذكر أن عقبة ما كاد يصل إلى القيروان حتى ظهر جهله بالتغيرات التى حدثت فى إفريقية أثناء غيابه ، وأن هذا الجهل انعكس فى إساءته لكسيلة زعيم البربر ، دون أن يستمع إلى نصائح دنيار أبى المهاجر ، أو يعمل على الإفادة من خبرة هذا القائد العربى . ثم أشار ابن عبد الحكم إلى خطة عقبة ابن نافع الحربية ، مبينا أنها لم تختلف عن الخطة التى سبق أن سار عليها من قبل ، وهى الانطلاق حربيا فى شمال إفريقيا حتى وصل إلى المحيط .

وتكشف الروايات التى ذكرها ابن عبد الحكم عن عودة عقبة من المحيط إلى القيروان ، وما حدث له فى الطريق ، عن دقة شيوخ الرواة الذين نقل عنهم الأخبار ، واهتمام هذا المؤرخ فى نفس الوقت بنقد تصرفات عقبة ، وبيان مغبة الخطأ الفاحش الذى وقع فيه بسبب جهله بالميدان الإفريقى فى وضعه الجديد . فتناول ابن عبد الحكم بالعرض والتحليل الموقف فى شمال إفريقيا ، ذاكراً أن كسيلة استطاع الفرار من جيش عقبة ، وأن الروم اتصلوا به ، وتآمروا معه على طمر الآبار على امتداد طريق زحف عقبة ، وإهلاك جيش هذا القائد عطشاً ، أثناء عودته إلى القيروان . وبذلك أوضح ابن عبدالحكم أن عقبة كان محاطاً من أول الأمر بشبكة واسعة النطاق من المؤامرات ، وإن هذا القائد العربى دفع حياته أخيراً ثمناً لجهله بالأوضاع الجديدة بإفريقية .

واختتم ابن عبد الحكم بحثه فى موضوع الفتح الإسلامى لشمال إفريقيا ، موضحا الخصائص التى اتسمت بها المرحلة الأخيرة من مراحل ذلك الفتح . وجعل هذا المؤرخ محور أبحاثه كذلك أشخاص القادة العرب الذين تولوا أعباء الفتح بعد استشهاد عقبة ، ومن أشهرهم حسان بن النعمان وموسى بن نصير . أما من حيث الخصائص التى أشار اليها ابن عبد الحكم فهو أن القادة العرب ساروا على نهج دينار أبى المهاجر فى ضم البربر إليهم ، وتحريرهم من رقبة الروم

ودسائسهم . وهنا تبلغ خبرة ابن عبد الحكم بتفاصيل الأمور أعلى درجاتها ، إذ كشف فى جلاء عن وجود جماعات من البربر « البتر » ، وهم سكان الصحراء فى جيش حسان بن النعمان ، وأن هذا القائد استطاع بالتالى القضاء على من وقع من البربر فى حبائل الروم ، وسيطر على إفريقية تماما .

ولا شك أن استخدام ابن عبد الحكم لكلمة « البتر » ، أمر يوقف نظر الباحث فى دقة هذا المؤرخ ، وعنايته التامة بالمواضيع التى يدرسها ، وحرصه الشديد على توخى الحقيقة فى نزاهة مطلقة . فالمعروف أن سكان بلاد المغرب من « البرانس » ، وهم سكان الجهات الخصبة ، وقعوا دائماً فريسة لدسائس الروم ، أما « البتر » فكانوا بعيدين عن تيارات الروم المعادية للعرب ، وبالتالى كانوا أسرع عن غيرهم فى الاستجابة للقادة المسلمين . وأيدت الأبحاث الحديثة صدق دراسات ابن عبد الحكم ، ودعمت الأسانيد التى ذكرها فى سياق عرضه للفتح العربى لشمال إفريقيا .

وانفرد ابن عبد الحكم بذكر حقيقة أخرى هامة فى موضوع الفتح العربى لشمال إفريقية ، قوامه أن العرب بعد أن تم لهم النصر اعتبروا أنهم كانوا فى حرب مع الروم ، لا مع البربر سكان البلاد الأصليين . ومن ثم عامل العرب أهل بلاد المغرب معاملة البلاد المفتوحة صلحاً ، على نحو ما حدث فى مصر . وأوضح ابن عبد الحكم

النتائج الهامة التى ترتبت على هـذه السياسة العربية ، وهى أن البربر دخلوا فى الدين الإســـلامى أفواجا ، والتحقوا بالجيش العربى ، وصاروا يؤلفون فرقا كبرى فيه ، ولا سيما على عهد موسى بن نصير ، الذى استفاد من هذا التطور الجديد للعمل على نشر الإسلام فى أسبانيا ، أى الشطر الغربى من أوربا . وهكذا وضع ابن عبد الحكم بدراساته القيمة للفتح العربى فى شمال إفريقيا أساس الصرح الإسلامى الذى أخذ يعلو على أرض أوربا .

الفصل الثانى عشر

مع العرب فى أسبانيا

التاريخ الحضارى :

يصور الفصل الختامى الذى عالج فيه ابن عبد الحكم امتداد الفتوح الإسلامية إلى أسبانيا صفات جديدة عند هذا المؤرخ ، لا يتبينها القارئ للمواضيع الأولى التى تناول فيها الفتح العربى لمصر وشمال إفريقية . وأول هذه الصفات الجديدة أن ابن عبد الحكم لم يلتزم طريقة واحدة عند عرضه لكل المواضيع التى تناولها ، وإنما وضع لأسبانيا منهجا خاصا ، يتفق مع طبيعة هذا الموضوع الذى أراد دراسته . فبينما جعل هذا المؤرخ شخصية القادة العرب هى المحور الذى دارت حوله أحداث الفتح الإسلامى لشمال إفريقية ، وذكر حملات هؤلاء القادة ذكرا تفصيليا ، نراه يسير فى معالجة فتح الأندلس وفق الطريقة الموضوعية ، التى تستهدف ذكر المقدمات ، وما يتبع ذلك من دراسة صلب الموضوع ، ثم ينتهى إلى النتائج التى يخرج بها ، بعد الدراسة والتمحيص . فلم يفرد لحملات القادة المسلمين فى أسبانيا عناوين خاصة ، وكذلك لم يحدد لأعمال أولئك القادة نهاية يقف عندها ، وإنما نظر

إلى موضوع الفتح العربي لأسبانيا نظرة كلية شاملة ، أشبه بالأبحاث التي يقوم بها المؤرخون في الوقت الحاضر .

والصفة الثانية التي اتصف بها ابن عبد الحكم ، والتي جاءت وليدة معالجته للفتح العربي لأسبانيا هو ظهور شخصيته في عرضه لما جمعه من مادة تاريخية ، دون ذكر لأسماء الرواة إلا في القليل النادر . فبينما وقفت جهوده مثلا في ذكر فتح العرب لمصر عند تصنيف الروايات التي جمعها حول هذا الموضوع ، والإشارة إلى أسماء الرواة قبل سرد مشاهداتهم ، نراه في فتح المسلمين لأسبانيا يعرض الأحداث نفسها ، بحيث يتخذ من المادة التاريخية وحدها سبيله للبحث والترتيب ، ولا يشير إلى الرواة إلا قليلا ، وفي أحداث خاصة . ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة الوافدين إلى مصر من أهل الاندلس ، على أيام ابن عبد الحكم ، أي في القرن الثالث الهجري ، وبعضهم كان من طلبة العلم ، مما اضطره إلى جمع المعلومات التي وعتها ذاكرتهم ، ثم شيّد عليها بعد ذلك فكره ومعاييره التاريخية ، كما قارنها بما وجده في مصر من روايات خلفها نفر من الذين شاركوا في أحداث فتح أسبانيا . وأمام هذا الحشد من المعلومات لم يجد ابن عبد الحكم من سبيل أمامه سوى أن يتخلص من أسماء الرواة بقدر الإمكان ، وأن يضع لنفسه منهجا موضوعيا ، يعتمد فيه على ما استخلصه بنفسه من حقائق ، وما وصل إليه من نتائج ، بعد المقارنة والموازنة والاطلاع أيضاً .

وهناك صفة ثالثه يمتع بها ابن عبد الحكم ، وهى قدرته على الكتابة فى التاريخ الحضارى وفهمه السليم لطبيعة التدوين فى هذا اللون من التأليف التاريخى . وجاءت هذه الصفة نتيجة منطقية للطريقة الكلية التى اتبعها فى معالجته لفتح العرب لأسبانيا . إذ تطلب المنهج الجديد الذى وضعه ابن عبد الحكم لتتبع فتح العرب لأسبانيا . ذكر مقدمة عن انتشار الإسلام بين البربر ، سكان بلاد المغرب ، وكيف صاروا يكونون فرقا كبرى فى الجيش الإسلامى ، ويسود أفرادها نفس الحماسة التى سادت الجند العربى ، الذى خرج من شبه الجزيرة العربية لإعلاء كلمة الإسلام . ولذا تفيد الدراسة التى قام بها ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع الباحث فى التاريخ الحضارى لبلاد المغرب ، وشرح أسباب استجابة أهلها سريعا للاسلام والعروبة كذلك . إذ تعتبر هذه الحقيقة ظاهرة كبرى توضح قوة الدين الإسلامى والقائمين عليه إذ ذاك من صفوة القادة العرب .

وأول الأمور التى كشف عنها ابن عبد الحكم فى هذا الميدان من التاريخ الحضارى أن مبدأ المساواة الذى نادى به الإسلام صار يطبق تطبيقا كاملا فى بلاد المغرب ، وأن أحد أبناء هذه البلاد وهو طارق ابن زياد وصل إلى مركز القيادة فى الجيوش الإسلامية ، وتمتع بالثقة التامة لدى السلطات العربية فى القيروان . وتتضح قيمة هذه الظاهرة السالفة إذا قارنها الباحث بما ذكره المؤرخون عن إباء أهل بلاد

المغرب قبل الإسلام لشتى الألوان الحضارية التى وصلتهم ، سواء عن طريق اليونان أو الرومان ، وأن أولئك الأهالى اعتبروا أصحاب هاتين الحضارتين مستعمرين يجب مقاومتهم والعمل على صد تياراتهم الفكرية وغيرها .

وفى نفس الوقت أماط ابن عبد الحكم اللثام عن الأصول الأولى لنشأة الحضارة الإسلامية العربية فى بلاد المغرب ، وأنها قامت على أكتاف أبناء هذه البلاد المحليين ، الذين نظروا إلى العرب على أنهم محررين لهم من ظلم الروم وبطشهم . فتفانى طارق ابن زياد فى خدمة هذه الحضارة ، وجاهد من أجل نشر رسالتها فى بلاد أسبانيا ، وخلد إسمه بالتالى إلى جانب أسماء قادة العرب الذين أسهموا فى بناء مجد الإسلام ، مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وغيرهما من أبطال الفتوح العربية الإسلامية . وبذلك تمتلىء الصفحات القليلة التى تناول فيها ابن عبد الحكم مقدمات الفتح الإسلامى لأسبانيا بالإشارات العديدة إلى دخول البربر على اختلاف أقسامها من « بتر » أى سكان الصحراء ، و « برانس » ، أى سكان الجهات الخصبة ، فى رحاب الإسلام ، وأن هؤلاء السكان جميعاً صاروا يمثلون مادة جديدة استفاد منها الدين الحنيف فى الانتقال إلى غرب أوربا ، وتكوين مركز هام من مراكز الحضارة التابعة له على هذه الأرض البكر .

الطريق إلى غرب أوربا :

وانتقل ابن عبد الحكم من ذكر التاريخ الحضارى لبلاد المغرب فى فجر أيامها فى ظل العروبة والإسلام إلى تتبع حملات المسلمين لفتح أسبانيا . واستهل دراساته بشرح البيئة الجغرافية للمغرب الأقصى ، وما امتلأت به من قواعد استخدمتها الجيوش الإسلامية فى حركاتها ، كما أفاض فى بيان الأحوال السياسية فى هذه القواعد ، ومدى اتصال الأحداث فيها بمجريات الأمور فى أسبانيا . وبذل هذا المؤرخ جهداً كبير فى جمع المعلومات الخاصة بالمسرح الجغرافى الجديد ، وعرضها عرضاً سليما ، بحيث تساعد الباحث على أن يحصل على صورة واضحة المعالم تفيده فى دراسة الجغرافيا التاريخية لبلاد المغرب .

واتخذ ابن عبد الحكم من نشاط طارق بن زياد مقدمة لدراسة أحداث الفتح الإسلامى لأسبانيا ، وشرح البيئة الجغرافية للمغرب الأقصى إذ ذاك . فأوضح أن هذا القائد العربى كان يرابط بجيوشه فى مدينة طنجة من قبل موسى بن نصير والى القيروان ، وأنه اضطلع بمهمة جمع الأخبار الأولى التى تضىء للسلطات الإسلامية السبيل لفتح أسبانيا . ولا شك أن ابن عبد الحكم كرّس كل وقته وجهده لتنسيق المادة التاريخية التى وصل إليها بحثه ، سواء عن طريق الرواة ، أو

المصادر التى تيسرت له ، حتى ربط بين شخصية طارق بن زياد وشخصية يوليان حاكم سبته ، وهو الذى قام بدور رئيسى فى تسهيل مهام الحملات الاسلامية الأولى على بلاد أسبانيا . فالمعروف أن طنجة تقع على مقربة من سبته ، وهى القلعة الحصينة التى تتحكم فى مضيق جبل طارق ، أو بحر الزقاق كما كان يسمى فى تلك الأيام السابقة للفتح الإسلامى لأسبانيا . وأشار ابن عبد الحكم إلى مقدرة طارق فى كسب ثقة يليان ، وبالتالى صار على صلة بأخبار أسبانيا .

وكان أسلوب ابن عبد الحكم فى بيان دور طارق وعلاقته بيوليان حاكم سبته أسلوبا علميا ، يدل على أمانة هذا المؤرخ ، وحرصه على الابتعاد عن الشطط فى التعبير من أجل المحافظة على سلامة البحث والدراسة . ذلك أن الروايات تضاربت فى تحديد شخصية يوليان وبيان ما إذا كان من زعماء البربر ، أم من القوط حكام أسبانيا ، أم من أصول ترجع إلى الروم السادة القدامى لمدينة سبته . ولا شك أن هذا التضارب وصل إلى ابن عبد الحكم ، وذلك على نحو ما سجلته الحوليات المعاصرة واللاحقة له ، ولكن هذا المؤرخ الفاحص تجنب هذه المشكلة بتعبير شامل ، أوضح فيه أن يليان صاحب سبته « رجل من العجم » ، « ويؤدى الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس » . فكلمة العجم اصطلاح استخدمه العرب للدلالة على كل شخص ليس بعربى ، وهو وصف ينطبق تماما على يوليان ، ولا ينفى أية

صفة من الصفات الأخرى التى لصقتها المراجع به ، كما أن تعبير ابن عبد الحكم أن هذا الرجل كان يؤدى الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس ، يعنى أنه ليس من رجال الدولة الحاكمة فى تلك البلاد ، وهو أمر أثبتت الأبحاث الحديثة صدق ابن عبد الحكم فى التعبير عنه بقوله السالف الذكر .

وبذلك أوضح ابن عبدالحكم أسباب السهولة التى تم بها الاتفاق بين طرق ابن زياد ويليان صاحب سبتة ، وكيف أفادت هذه الصلة فى معرفة السلطات الاسلامية فى القيروان أحوال أسبانيا ، وأنها أضحت صالحة للقيام بحملات الفتح . إذ كشف ابن عبد الحكم عن قيام خلاف بين يليان ولذريق ملك القوط فى أسبانيا ، وأن يليان رأى أن يدخل فى طاعة جيرانه المسلمين ، الذين علا نجمهم فى القيروان ، ويطلب مساعدتهم ضد لذريق . ووجد المسلمون فى هذا الخلاف بالتالى فرصتهم لإعداد الجيوش لفتح أسبانيا ، وتحقيق أهدافهم فى سهولة ويسر . وأشاد ابن عبد الحكم بقيادة طارق بن زياد للجيوش الأولى التى عبرت بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) إلى أسبانيا ، وكيف حقق هذا القائد أعظم نصر للإسلام فى أوربا ، وذلك حين هزم لذريق وجنده عند نهر البرباط بجنوب أسبانيا (سنة ٩٢ هـ/٧١١م) . وفتح هذا النصر أمام طارق أبواب الزحف على أسبانيا ، وأنه تقدم إلى طليطلة عاصمة القوط واستولى عليها .

ولم يلبث موسى بن نصير أن أعدّ حملة أخرى كبرى ، وانتقل بها إلى أسبانيا ، وكتب إلى طارق يطلب منه البقاء حيث هو ، ولا يتقدم لفتح أية جهة أخرى . ولم يذكر ابن عبد الحكم السبب الذى من أجله ذهب موسى إلى أسبانيا ، ولم يوضح أيضاً الدوافع التى جعلته يغضب على طارق . وقد رددت بعض المراجع الأخرى ، وليس من بينها ابن عبد الحكم ، أن موسى حقد على طارق ما ناله من فوز فى أسبانيا ، وأنه رغب فى الانتقال إليها ، لينال شرف فتح هذه البلاد ، ليحظى بالغنائم . ولا شك أن هذه الفرية ، التى لم يرددها ابن عبد الحكم ، بعيدة كل البعد عن جادة الصواب ، إذ المعروف أن إعداد الحملة ، التى تولاها طارق ، كانت بموافقة وتدبير موسى نفسه ، فضلا عن أنه القائد العام ، الذى رسم خطه الفتح ، وصاحب السلطة العليا فى إصدار الأوامر . ثم إن طارق كان موضع الثقة المطلقة بسبب طاعته العمياء لموسى بن نصير ، مما يبعد أيضاً دوافع الغيرة بينهما .

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن سبب انتقال موسى بن نصير إلى أسبانيا هو انقاذ طارق من أعمال المقاومة التى بدأ القوط يدبرونها فى المدن التى ترك طارق أمرها أثنـــاء اندفاعه وراء جند لذريق ، عقب فرارهم من معركة وادى بكة . ثم أن المتتبع لخط سير موسى فى أسبانيا يلمس فى جلاء كثرة المدن التى أهمل طارق شأنها ، وكيف

قاومت هذه المدن مقاومة عنيفة وطال أمد حصارها أيضاً مما يكشف عن الخطر الذى وقع فيه طارق نتيجة اندفاعه إلى شمال البلاد . والمعروف أن طبيعة أسبانيا الجغرافية وتوزيع الجبال فيها يحتم على أى قائد العمل على تأمين ظهره أولا بأول ، حتى يتجنب الكوارث المفاجئة .

وبعد أن التقى موسى وطارق ، وانتهى الموقف المتوتر بينهما ، استأنف كل منهما أعمال الفتح ، وفق خطة مشتركة قام كل منهما بوضعها ، والاتفاق على معالمها . وهذا ينهض دليلا على أن الخلاف السابق بينهما لم يكن خلافا مبعثه الغيرة ، وإنما هو أمر اقتضته سلامة الجند ، وطبيعة الفتوح فى أسبانيا . وقد نال موسى نصراً باهراً ، حتى دانت البلاد لسلطان العرب ، وبعث إلى الخليفة الوليد يزف إليه أنباء هذا الفتح المبين . وجاء فى رسالة هذا القائد العربى قول بليغ ويصور الموقف تصويراً بليغاً موجزاً فى نفس الوقت . وقد نقل ابن عبد الحكم هذا النص الذى جاء فيه قول موسى عن أعماله الحربية « أنها ليست بالفتوح ، ولكنه الحشر . » وقد وصل كل من موسى وطارق استدعاء من الخليفة بالعودة إلى دمشق ، وغادرا البلاد فعلا سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م ، بعد أن خلدا إسميهما فى هذا الشطر من الأرجاء الأوربية بمداد من الفخار ، وأعليا فيه كلمة الإسلام ، كما غرسا فيه بذور الحضارة العربية.

الفصل الثالث عشر

الإدارة العربية

أسس الحكم :

كتب ابن عبد الحكم فصلا طيبا عن تاريخ الإدارة العربية فى مصر ، أثبت فيه أن رخاء وطنه يتوقف على أمور ثلاثة : هى إدارة سليمة تعرف حاجات البلاد وأهلها ، ومالية متوازنة تمثل الموارد الثابتة والمصروفات الحقيقية ، ثم رقابة إدارية توجه العاملين إلى الطريق القويم . ومن ثم يمثل هذا الموضوع الذى تناوله مؤرخ مصر الأول ، أساسا متينا للباحثين فى تاريخ الاقتصاد المصرى ، يمكن أن يشيدوا عليه دراساتهم فى ثقة واطمئنان . والظاهرة الكبرى التى تبادر القارىء لما كتبه ابن عبد الحكم عن إدارة مصر ، هو سيادة الشعور بالطمأنينة عند الناس ، وهو شرط لازم لإقبالهم على العمل والإنتاج . ثم أن الجميع شارك فى إدارة وطنه ، وتحمل مسئوليات محددة ، هدفها المحافظة على سلامة بلده وأهله .

ويوضح قيمة البحث الذى قام به ابن عبد الحكم فى الميدان السالف الذكر ، أن وطنه كان يعانى قبل قيام الإدارة العربية فيه

حكما استعماريا بغيضا فرضه الروم وعملاؤهم على البلاد ، وجعلوا هدفهم الأول ابتزاز ثروات البلاد ، دون نظر إلى أية مصلحة أخرى تتعلق بالأهالى . فكانت مصر فى نصف القرن السابق للفتح العربى لها فى حالة فوضى ، سببها أن الروم اعتبروا الفلاحين من أهلها مجرد أدوات الإنتاج القمح ، ون رجال الإدارة فيها موكول إليهم فقط ابتزاز الأموال من الرعية ، دون أن يكون من مهامهم توفير الرفاهية لها ، أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة ، أو إصلاح أمور أرزاقهم . وإنما كان الحكم حكم أغراب ، لا يعتمد إلا على القوة الغاشمة ، ولا يتمتع بأى عطف من الشعب .

وظهر الفارق الكبير بين الإدارة الاستعمارية التى وضعها الروم ، والإدارة العربية أن الأخيرة اتخذت من المصريين سندا لها ، ووكلت مقاليد الأمور إليهم ، ليديروا شئون بلادهم بما يكفل لها الرخاء والتقدم . وغدا بطريق مصر ، وهو « بنيامين » ، الذى سبق أن فر من طغيان الروم موضع احترام رجال الادارة العربية ، ويستشيرونه فى مهام الأمور . وذكر ابن عبد الحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب طلب من عمرو بن العاص أن يستشير هذا البطريق فى خير وسيلة لحكم البلاد وتنظيم ماليتها . وأشار بنيامين باتباع ما يلى :

١ — أن يستخرج خراج مصر فى أوان واحد عند فراغ الناس من الزراعة .

٢ — أن يرفع خراجها فى أوان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم .

٣ — أن تحفر خلجانها كل عام .

٤ — أن تصلح جسورها وتسد ترعها .

٥ — ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس .

وجاءت أقوال بنيامين ، كما ذكرها ابن عبد الحكم ، فى هذا الايجاز البليغ : « تأتى عمارتها (أى مصر) وخرابها من وجوه خمسة : أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم . ويرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ، وتحفر خلجانها ، وتسد ترعها وجسورها ، ولا يقبل محل أهلها — يريد البغى — فاذا فعل هذا فيها عمرت ، وأن عمل فيها بخلافه خربت » .

وسارت الادارة العربية فعلا على هدى أقوال بنيامين المصرى ، فتركت لأهالى البلاد تنظيم شئونهم المالية ، لأنهم أعرف بمصالحهم وحاجاتهم . وكانت مصر تنقسم إدارياً إلى أقسام تسهل للأهالى عملهم ، وهى الأقسام التى أطلق عليها العرب اسم « الكور » ، أى الأقاليم الادارية التى اشتملت عليها البلاد ، أشبه بالمحافظات فى الوقت الحاضر . وكان لكل إقليم حاكم حمل لقب « صاحب الكورة » ، ومهمته تنظيم العلاقات بين أهالى منطقته والادارة المركزية .

وشرح ابن عبد الحكم طريقة إشراك الأهالى فى الادارة قائلا :
أن عمرو بن العاص ترك المصريين على جباية الخراج ، « وكانت جبايتهم بالتعديل ، إذا عمرت القرية ، وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ، ومازوتها (وهى كلمة تعنى مشايخ القرى) ورؤساء أهلها ، فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور . ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون ، فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم ، من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فإذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فإن كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها .. ثم ينظرون ما بقى من الخراج ، فيقسمونه على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين ما يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز أحد وشكا ضعفا من زرع أرضه ، وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال ، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فإن تشاحّوا قسموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار ، أربعة وعشرين قيراطا ، يقسمون الأرض على ذلك ».

ويوضح النص السالف الحرية التي تمتع بها الأهالي في تنظيم شئونهم الادارية ، وكيف أن القدرة على العمل ، وزيادة السكان أو نقصانهم ، وكذلك التطورات المفاجئة ، كل ذلك كان موضوع التقدير والدراسة. والأمر الهام أيضا أن شطرا كبيرا من الدخل كان ينفق على مطالب القرى ، وإصلاح شأنها ، حتى تستطيع السير قدما في النهوض بأعبائها. وفي نفس الوقت لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وكانت موضع الاهتمام، لأن رؤساء كل قرية اشتركوا في وضع التقديرات المفروضة ، وكانوا أيضا أعلم بحاجات مواطنيهم وما يكفل لهم العدالة .

ووصف ابن عبد الحكم طريقة إدارة الأمور في مصر وصفا دقيقا ، يكشف عن عدالة الحكام بها وحرصهم على مصالح رعاياهم . واتبع هذا المؤرخ منهجا طيبا جعل دراساته في هذا الميدان من نظم الحكم بعيدة عن السقم ، ودون أن يشحنها بالمعلومات النظرية أو المسائل الغير واقعية. فعزز ابن عبد الحكم أقواله بالأحداث والوقائع، مستمدا من أبحاثه التاريخية ما يجعل تصويره للادارة في مصر تصويرا شيقا جيدا . فأوضح أن الخليفة عمر بن الخطاب رسم لعماله على الولايات أمثل السبل لإدارة دفة الحكم ، وأنه دأب على عقد اجتماعات دورية لأولئك العمال ومناقشتهم في أعمالهم ، وتزويدهم دائما بآرائه وتوجيهاته .

ومن أطرف النماذج التاريخية التى ذكرها ابن عبد الحكم فى بحثه عن الادارة فى مصر ، بيانه للعلاقة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو ابن العاص . إذ جهد الخليفة فى تلقين عمرو بن العاص أن مبدأ المساواة بين الرعية أمر واجب ، وأنه لن يفرط فى حق أى فرد مهما كانت منزلة الحاكم إذا أساء فى حق هذا الفرد . ثم أعقب ابن عبد الحكم ذلك بذكر أول تطبيق عملى للمبدأ السالف الذكر حين وصلت الخليفة شكوى من أحد أبناء مصر، ضد ابن عمرو بن العاص نفسه ، إذ استدعى الخليفة عمرو وابنه ، وأوقع القصاص على ذلك الإبن ، كما لفت نظر عمرو مرة أخرى إلى ضرورة مراعاة القواعد السليمة فى حكمه .

وعلى هذا النحو من العدالة التامة سارت الإدارة فى مصر ، وخلقت جيلا جديدا لا يرهبه شىء ، وبدأ الجميع يشعرون بأنهم يعملون فى وطن يكفل لهم العزة والكرامة . وحاول ابن عبد الحكم أن يظهر الحقيقة السالفة فى شتى الصور ، ليؤكد أن وطنه استقبل عهدا يختلف كل الاختلاف عما سبقه من عهد التبعية للروم ، وأن الفارق شاسع بين الإدارة فى كل من هذين العهدين . وكفل هذا اللون من التنظيم الإدارى للبلاد حرية مطلقة ، بدأت فى ظلها تتابع رسالتها فى خدمة الحضارة العالمية ، وتزود العروبة بروح عالية من الحماسة ، ساعدت على انطلاقها فى آفاق جديدة . إذ كانت الإدارة العربية فى مصر هى التى تشرف على سير التقدم العربى فى بلاد المغرب والأندلس ، وتمد هذه النواحى بالنماذج الطيبة من الحكم والتوجيه .

الإدارة المالية :

وكان أول مسألة اهتمت بها الادارة العربية فى مصر ، هو تنظيم الأمـــوال العامة فيها ، أو موارد البلاد ، وهى التى عرفت باسم « الخراج » . وأسهب ابن عبد الحكم فى شرح التنظيم المالى على عهد عمرو بن العاص ، لأنه أول وال تقلد أمور الإدارة المالية إلى جانب الشئون العامة لمصر ، وأن ماوضع من نظم على أيام هذا الحاكم العربى صارت التقليد الذى اتبعه خلفاؤه على البلاد . ويعتبر الفصل الذى عقده هذا المؤرخ عن تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الإدارة المالية فى مصر شرح دقيق للملكية العقارية وكذلك ضريبة الأرض فى البلاد ، وكيف أن حكامها حرصوا كل الحرص على تدعيم اقتصاديات الأهالى ، لأنها العمود الفقرى لموارد تلك الإدارة المالية .

وسجل ابن عبد الحكم تاريخ الإدارة المالية فى مصر ، فى المراسلات الهامة التى تم تبادلها بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو ابن العاص ، والى البلاد ، والذى كشف عن خبرة عالية بشئون مصر وأعلن رأيه بصراحة تامة ، دون أن يخشى فى ذلك لومة لائم . ذلك أن الخليفة استرعى نظره أن موارد مصر نقصت فى عهد الإدارة العربية عما كانت عليه أيام حكم الروم ، وظن أن السبب فى ذلك سوء تدبير عمرو بن العاص ، ومن معه فى إدارته ، وكتب إليه خطابا ملأه

بالتهديد . غير أن عمرو بن العاص أجاب الخليفة بخطاب يدفع فيه عن نفسه التهم والشكوك .

وتعتبر المراسلات التى أورد ابن عبد الحكم نصوصها ، والتى تبادلها كل من الخليفة وعمرو بن العاص مقارنة طريفة بين وجهتين من وجهات نظر الحكم ، وبيان الأسانيد التى اعتمد عليها كل حاكم فى تبرير رأيه وتصرفاته . أما وجهة نظر عمر بن الخطاب فشرحها ابن عبد الحكم شرحاً وافياً ،موضحا فيها اتهام الخليفة لعمرو بن العاص بالإبطاء فى إرسال الخراج ، وخلفه فى المواعيد التى حددها لوصول هذا الخراج ، فضلا عن تهديده بالعقاب إذا لم يبادر بعزل عمال السوء الذين التفوا حوله ، وحجبوا الحقيقة عنه . وفى نفس الوقت أجاد ابن عبد الحكم فى بيان دفاع عمرو بن العاص عن نفسه ؛ إذ شرح للخليفة أن سبب تأخير إرسال الخراج هو انتظار مواعيد فيضان النيل ، وأنه يعلم تماما شئون الادارة فى بلاده ، وليس لعمال السوء مكانة عنده .

وبذلك صوّر ابن عبد الحكم سير الادارة فى وطنه سيرا حيّاً رائعاً ، وموضحاً فى نفس الوقت أن الصالح العام كان هدف الحكام على اختلاف مراتبهم ، سواء لدى الحكومة المركزية فى المدينة بالحجاز ، أو عند الادارة المحلية فى الفسطاط بمصر . ويبدو أن رسالة المؤرخ ، وهى دراسة الماضى ليستفيد بها أبناء الحاضر ، كانت هدف ابن عبد الحكم من

إفاضته فى ذكر المراسلات المتبادلة بين الخليفة عمر، وعمرو بن العاص، وحرصه أيضاً على تسجيلها بما حملته من انفعالات ومشاعر. إذ سادت البلاد المصرية على أيام ابن عبد الحكم موجة من مصادرة الأموال عسفا، تعرضت لها أسرته نفسها، دون أن يجرؤ على إبداء النقد لها أو معارضتها. ولذا اتخذ من عدالة الادارة المالية على عهد عمر بن الخطاب واعظا يهدى الحاكمين على عهده إلى الصرط المستقيم، ويرسم لهم فى نفس الوقت أمثل السبل للمحافظة على حقوق الناس وأموالهم.

وصور ابن عبد الحكم أيضا فى المراسلات التى تبادلها الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص النظم المالية فى مصر فى فجر تاريخها فى ظل الاسلام، وقارن بين هذه النظم إذ ذاك وبين ما كانت عليه أيام الروم، وأيام الفراعنة أنفسهم كذلك. وكشف هذا المؤرخ بطريق غير مباشر عن معلومات لم يكن من المستطاع معرفتها فى هذه المرحلة من تاريخ مصر، وترك بالتالى أساسا طيبا للباحثين فى التاريخ المالى لمصر، ودراسة التطورات التى تعرضت لها الإدارة المالية.

وأول شىء أظهره ابن عبد الحكم هو أن الإدارة المالية لمصر على عهد الفراعنة كانت تسير فى الاتجاه الصحيح من حيث مراعاة موارد البلاد، وانفاق ماتتطلبه مرافق هذه البلاد من رعاية وإصلاح. وانتقل ابن عبد الحكم من ذلك إلى شرح حالة مصر أيام الروم، وذلك كما صورها عمرو بن العاص للخليفة؛ وهو الذى ولى شئون

البلاد مباشرة بعد زوال حكمهم البغيض . إذ كان هدف الروم ابتزاز موارد البلاد دون العناية بمرافقها وأحوالها ، وهو أمر أوضحت الدراسات الحديثة صدق الروايات التى ذكرها ابن عبد الحكم بشأنها .

وأشار ابن عبد الحكم إلى أن الخليفة بعث فى خطابه إلى عمرو ابن العاص يسأله عن سبب انخفاض خراج مصر إلى النصف ، بالنسبة لما كان عليه أيام الروم . وأتبع هذا المؤرخ رسالة الخليفة برواية نقلها عن أحد شيوخه وهو الليث بن سعد ، تحوى إحصاءا دقيقا للخراج أيام الروم ، على عهد المقوقس ، ثم فى أيام عمرو بن العاص . إذ بلغ الخراج على عهد المقوقس عشرين ألف ألف دينار ، على حين جبى عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار ، أى أن الخراج انخفض إلى النصف تقريبا . وتعتبر الرواية الأخيرة عنوانا على سعة اطلاع ابن عبد الحكم وصبره الطويل فى جمع المعلومات الخاصة بوطنه ، ثم عرضها بحيث توضح كل رواية ما عجزت الرواية السابقة لها عن تفسيره . فإذا كان خطاب الخليفة قد أشار إلى انخفاض الخراج إلى النصف أيام عمرو بن العاص ، فإن ابن عبد الحكم شرح باحصائياته ما أجمله الخطاب السالف الذكر .

وتتضح أهمية العمل الذى قام به ابن عبد الحكم ، وهو تسجيله لنصوص المراسلات المتبادلة بين الخليفة وعمرو بن العاص ، عند قراءة إجابة عمرو على استفسار الخليفة . إذ استهدف هذا المؤرخ

إظهار أمثل السبل لإصلاح شئون مصر على لسان عمرو بن العاص نفسه . وخلاصتها أن السلطات العربية تنفق على البلاد ومرافقها ما هي بحاجة إليه ليصلح أمرها ، على حين كان هَمّ الروم جباية الأموال فقط دون الانفاق منها على مطالب البلاد . ولذا بدا هذا الفارق الهائل بين خراج مصر على عهد كل من هاتين الادارتين ، بسبب فساد إدارة الروم وصلاح الإدارة العربية .

الرقابة الإدارية :

سارت الأداة الحكومية في مصر سيراطيبا بفضل التوجيه المتصل ، والإشراف الدقيق من جانب أصحاب السلطان . وكان على رأس الإدارة الوالى ، الذى مثّل سلطان الخليفة فى البلاد ، وحمل أحيانا لقب « أمير مصر » . وهو لقب من أرفع الألقاب ، وأعظمها منزلة ، وامتد نفوذ الوالى إلى جوانب عديدة ، على نحو ما كان عليه عمرو بن العاص ، إذ أمّ الناس فى الصلاة ، نيابة عن الخليفة ، وهو أمر يدل على سلطان الوالى ، ويعنى أيضا أنه الرئيس الأعلى للبلاد . وجمع عمرو أيضا إلى جانب السلطان السياسى حق الإشراف على الإدارة المالية للبلاد ، وهو أمر بالغ الأهمية ، حيث يصبح الوالى الذى يجمع بين إمامة الناس فى الصلاة وجمع الخراج ، صاحب سلطان مطلق ، أى أن ولايته ولاية عامة ، على نحو المصطلح الذى أطلقه الفقهاء من الباحثين فى

الشئون الإدارية للدولة العربية. وكان عمرو أيضا يعين القضاة فى مصر، ولكن بتفويض من الخليفة، نظراً لأهمية هذا المنصب وجلاله.

وعلى الرغم من هذا السلطان الواسع الذى تمتع به الوالى فإنه أعطى بعض اختصاصاته لنفر من الموظفين عرفوا باسم « العمال »، وأحيانا حمل كل منهم لقب « صاحب كذا »، حسب نوع العمل الذى يقوم به. وكان يأتى على رأس قائمة أولئك العمال « صاحب الشرطة » الذى تولى الإشراف على النظام، وضبط الأمن. وصاحب الشرطة هذا كان بمثابة نائب الوالى، فيؤم الناس فى الصلاة إذا مرض، ويحكم الولاية إذا خرج الوالى منها لسبب من الأسباب. ومن ذلك أن خارجة ابن حذافة، صاحب الشرطة أم الناس فى الصلاة أثناء مرض عمرو ابن العاص، ولقى مصرعه نتيجة لذلك، على يد الخوارج، الذين تآمروا على عمرو.

وساعد الوالى فى الإشراف على الأداة الحكومية، إلى جانب « صاحب الشرطة » عاملان، أحدهما اختص بشئون الوجه البحرى، والآخر بشئون الوجه القبلى. واشتمل كل من هذين القسمين الكبيرين على أقسام، أطلق عليها العرب اسم « كور »، وهى كلمة استخدمها الروم للدلالة على الأقسام الإدارية لمصر. وبلغ عدد هذه الكور ثمانون وحدة، ضمت بدورها الكثير من القرى، حسب مساحتها. وتولى الاشراف على كل قسم من هذه الأقسام الادارية حاكم كان يحمل لقب

« صاحب الكورة » . ويأتى بعد هذه الطبقة من العمال رؤساء القرى ومشايخها ، الذين أطلق عليهم اسم « مازوت » ، وهى بدورها تسمية من مخلفات حكم الروم .

وشرح ابن عبد الحكم انتظام العمل فى ظل الهيئات السالفة ، والاشراف الدقيق الذى ساد الإدارة ، قائلا : إنه كان يُبدأ بدراسة أى موضوع من المواضيع عن طريق الموظفين المتصلين مباشرة بالأهالى ، ثم يرفعون الأمر إلى رؤسائهم ، « فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ، ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى إذا أقروا — الأمر — ... انصرفوا إلى الكور، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى»، وعلى هذا النحو من التدرج حتى يصل الأمر إلى الوالى . وهذا النظام الإدارى الدقيق هو الذى ساعد عمرو بن العاص على أن يقف على حقيقة مالية مصر ، ويحقق رغبات أهلها ، على نحو ما دار فى المراسلات بينه وبين الخليفة . وبعبارة أخرى كان الإشراف دقيقاً ، وسلطان الوالى ملموسا من أقصى البلاد إلى أقصاها ، ويشعر كل عامل بأن السلطة العليا تراقبه ، وتعرف كل تصرفاته ، ومن ثم يعمل جاهداً على العمل بتوجيهاتها ، وينفذ رغباتها فى دقة وأمانة .

وهكذا توضح دراسات ابن عبد الحكم أنه قامت فى الأداة الحكومية هيئة للاشراف على عمالها ، يمكن أن نسميها — على حد المصطلح الشائع فى الوقت الحاضر — باسم « الرقابة الادارية » ، ومهمتها

التوجيه والإرشاد ، ومنع وقوع الخطأ ، وفى نفس الوقت توقيع الجزاء الإدارى على المخطىء العامد . وأول حادثة عن نشاط تلك الهيئة الجديدة ما ذكره ابن عبد الحكم عن حرص الخليفة عمر بن الخطاب على ترك شئون الزراعة بمصر لأهلها ، وحرمان الجند من الاشتغال بتلك الزراعة ، حتى يتوفروا للدفاع عن البلاد ، وخاصة فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخها فى ظل العروبة ، وتعرضها لإغارات الروم . وكان كل مخالف لهذه التعليمات يلقى العقاب الرادع ، وذلك على يد الخليفة نفسه ، الذى مثل الرئاسة العليا لهيئة الرقابة الادارية .

وأورد ابن عبد الحكم الحادثة التالية ، للدلالة على دقة الرقابة الادارية ، فقال : « بلغنا أن شريك بن سمى الغطيفى أتى إلى عمرو بن العاص ، فقال : أنكم لا تعطونا ما يحبسنا ، أفتأذن لى بالزرع ؟ فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك . فزرع شريك من غير إذن عمرو . فلما بلغ ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمى الغطيفى حرث بأرض مصر . فكتب له عمر : أن ابعث إلىّ به . وعندما التقى الخليفة بهذا الرجل المخطىء ، عنفه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أخذ عليه المواثيق بألا يعود إلى مخالفة رجال الادارة فى بلده .

وهناك جانب طريف تناوله ابن عبد الحكم فى دراساته لموضوع الإدارة العربية ، وهو عنايته بتحليل نفسية رجال هذه الادارة ، وقدرة أولى الأمر على فهم طبيعة النفس البشرية ، والعمل بالتالى على توجيهها .

فذكر ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع عدة روايات هامة دارت أحداثها بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، تكشف عن هذا اللون من الاختبارات النفسية لرجال الادارة ، إذ حين وفد عمرو بن العاص إلى المدينة بالحجاز ، وكان على رأس جماعة من كبار أهل مصر ، دعاه الخليفة لتناول الثريد معه ، فبادر عمرو بن العاص بالجلوس القرفصاء والاشتراك فى هذا الطعام ، وهو يلتهمه بيده . وعندما انصرف من عند الخليفة ، شرح لكبار أهل مصر سبب سرعة تلبيته لتناول الطعام قائلا : أن الخليفة يعلم أنى وفدت من مصر ، وبالتالى غنى عن الثريد ، ولكنه إذ يدعونى لتناول الطعام معه أراد أن يختبرنى ، ولو لم أقبل للقيت منه شرا .

واختتم ابن عبد الحكم بحثه فى تاريخ الادارة العربية بشرح نظام « المقاسمة » الذى يقضى بأن يرد كل وال إلى الخزانة العامة ، أو بيت المال نصف الثروة التى جمعها أثناء ولايته . وبلغ هذا المؤرخ درجة الإجادة فى دراسته لذلك اللون من أعمال الرقابة الادارية ، كما كشف عن مقدرته فى التعمق وراء البحث ومعرفة أصول هذا النظام الفريد. فأثبت ابن عبد الحكم أن السبب فى وضع نظام المقاسمة هو اتجاه الحكام على عهد الخليفة عمر بن الخطاب نحو الثراء ، واستغلال أموالهم أو استثمارها فى الأعمال التى تدر عليهم رزقا كبيرا . وتناقل الناس أخبار نفر من أولئك الولاة، مما دعا الخليفة إلى تعيين نفر من رجال الإدارة لمحاسبة الولاة سنويا ، ومقاسمتهم ثرواتهم .

وانتقل ابن عبد الحكم من هذه المقدمة القيمة إلى شرح ما حدث في مصر ذاتها، عندما طبق الخليفة على عمرو بن العاص نظام المقاسمة. إذ أوضح نزاهة العمال الذين انتدبهم الخليفة عمر لهذه المهمة، ورفضهم في إباء وشمم أي لون من ألوان الهدايا من عمرو بن العاص، حتى لا تثار حولهم الشكوك، وليضربوا المثل الأعلى في الأمانة المطلقة. وانتهى الأمر بإحصاء أموال عمرو بن العاص وأخذ نصفها طبقا لنظام المقاسمة.

وهكذا أوضح ابن عبد الحكم تاريخ الادارة العربية في مصر، وبيّن كيف أنها سارت على أسس راسخة منذ أيامها الأولى. وإذا كان هذا المؤرخ قد قصر رواياته على عهد عمرو بن العاص، فإن ذلك يرجع إلى أن ما حدث في تلك المرحلة صار النبراس الذي اهتدى به من جاء بعده من الولاة، كما أن التعاليم والقواعد التي وضعت إذ ذاك ظلت موضع احترام الجميع، ومرشدهم الأمين.

الفصل الرابع عشر

قضاة مصر

هيبة القضاء :

استهل ابن عبد الحكم القسم الذى تناول فيه قضاة مصر بأحاديث عن الرسول الكريم ، وأقوال مأثورة عن الخلفاء وكبار رجال الدولة العربية ، توضح قدسية القضاء ، وتحث كل متصد لهذه المهمة السامية أن يأخذ نفسه بالتقى والعلم ، حتى يصدر أحكامه عن روية وبينة . فقال رسول الله (ص) : القضاة ثلاثة ، اثنان فى النار وواحد فى الجنة ، رجل علم علماً فقضى بما علم فهو فى الجنة ، ورجل جهل فقضى بالجهل ففى النار ، ورجل قضى بغير ما يعلم ففى النار . ولذا صار على كل قاض أن يكون على قدر عظيم من الخبرة والمعرفة، لأنه لا يقبل منه بأية حال من الأحوال أى خطأ فى أحكامه . فروى قتادة « سمعت أبا العالية يذكر عن على ، وقد أدركه ، قال : القضاة ثلاثة ، واحد فى الجنة ، وإثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة فرجل اجتهد فأصاب الحق فهو فى الجنة ، ورجل جار متعمداً فهو فى النار ، ورجل اجتهد رأيه فأخطأ فهو فى النار . فقلت لأبى العالية ما ذنب هذا وقد اجتهد ؟ ، قال : إذا كان لا يعلم فلم يقعد قاضياً يقضى .

وأكد الخليفة عمر بن الخطاب هذا الرأى فى قوله : القضاة ثلاثة ، قاض قضى برشوة فهلك ، وقاض اجتهد فأخطأ فود لو أن أمه لم تلده ، وقاض اجتهد فأصاب فأفلت ولم يكد يفلت .

وأتبع ابن عبد الحكم مقدمته عن هيبة القضاء بذكر نماذج تصور إحساس قضاة مصر بجلال المهمة التى يضطلعون بها ، وأن كثيراً منهم تردد فى قبول الجلوس للقضاء بين الناس . وتعتبر هذه النماذج فى نفس الوقت دراسة تاريخية استهدف فيها ابن عبد الحكم عرض موضوع واضح المعالم عن نشأة القضاء الإسلامى فى مصر ، وذكر التطورات التى طرأت عليه . فنسب هذا المؤرخ تعيين أول قاض فى مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى تولى تنظيم شئون الدولة الإسلامية عامة فى شتى النواحى الإدارية والإقتصادية .

وأشار ابن عبد الحكم فى نماذجه إلى أن أمر اختيار القضاة لم يكن سهلا ميسوراً ، حتى على أيام عمر بن الخطاب نفسه ، إذ ذكر أن هذا الخليفة بعث إلى عمرو بن العاص ، وهو والى مصر ، يطلب منه أن يعهد بالقضاء إلى كعب بن يسار العبسى ، ولكن هذا الرجل أبى ذلك ، لأنه تولى مهمة القاضى فى الجاهلية ، وأخذ على نفسة عهداً ألا يعود إلى منصب القضاء مرة أخرى . وتكشف هذه الرواية عن حقيقة أخرى حاول ابن عبد الحكم توضيحها ، وهى أن السلطات الإسلامية كانت تبحث عن المرشحين لمناصب القضاء ، ممن سبق لهم

الاشتغال بهذه المهمة السامية ، حتى تضمن توافر الخبرة لديهم ، فضلا عن النزاهة والاستقامة ..

ودعّم ابن عبد الحكم دراساته عن نجاح السلطات الإسلامية في اختيار القضاة الصالحين ، بذكر مواقف لهم ، تشهد بنزاهتهم المطلقة ، وحرصهم الشديد على الاحتفاظ بقدسية مناصبهم . فروى هذا المؤرخ أن أحد قضاة مصر وهو أبو خزيمة كان لا يأخذ أجراً عن يوم الجمعة ، ويقول : « إنما أنا أجير المسلمين ، فإذا لم أعمل لهم لم آخذ متاعهم » . هذا فضلا عن النماذج الأخرى العديدة التي جمعها ابن عبد الحكم لتدعيم دراساته عن هيبة القضاء في مصر ، وجلال الأشخاص القائمين على أمره .

الإدارة القضائية :

وأجاد ابن عبد الحكم دراسة تاريخ الإدارة القضائية في مصر ، منذ نشأتها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى القرن الثالث الهجري . ونجح هذا المؤرخ في بيان مدى التشابه بين هذه الادارة وغيرها من الإدارات المماثلة لها في سائر بلاد الدولة الإسلامية ، كما أوضح المميزات التي اختصت بها تلك الإدارة في مصر ، وانفردت بها عن غيرها . وأول مظاهر التشابه التي ذكرها ابن عبد الحكم هو أن الخليفة عمر بن الخطاب حرص على منح القضاة كل أسباب الطمأنينة والإجلال ، وأن هذا الخليفة حين عيّن أول قاض على مصر ، وهو

قيس بن أبى العاص سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م ، بعث إلى واليه على مصر ، وهو عمرو بن العاص بأن يحيط القاضى بكل مظاهر الحفاوة والتكريم والإعلاء من شأنه .

وبذلك كشف ابن عبد الحكم عن قوة دعائم الإدارة القضائية فى مصر ، وأنها سارت منذ فجر تاريخها وفق تقاليد سامية ، صارت موضع احترام الأجيال المتعاقبة من رجال الحكم والسلطان . ثم تابع دراساته القيمة فى هذ الموضوع ، موضحا ازدياد التقاليد التى أحاطت بتطور الإدارة القضائية فى مصر ، كما ذكر أمثلة رائعة عن قوة هذه التقاليد، واتجاهها إلى صيانة قدسية القضاء . وتعتبر هذه النماذج التى أوردها ابن عبد الحكم صورة تعكس خبرته بالإدارة القضائية ، وما تحلى به هذا المؤرخ كذلك من دقة فى البحث والاستقصاء . فروى أن الخليفة العباسى ، أبا جعفر المنصور سنّ تقليداً جديداً ، هو استشارة كبار أهل مصر قبل تعيينه للقاضى بالبلاد ، حتى يضمن اختيار أكفأ الأشخاص . وأضاف ابن عبد الحكم إلى هذا التقليد حقيقة أخرى ، أيدتها الأبحاث فى موضوع القضاء الإسلامى ، وهو أن السلطات حرصت على أن يكون القاضى سليم الحواس ، حتى يستطيع أداء مهمته .

وذكر ابن عبد الحكم إحصاء طريفاً عن رواتب القضاة ، مبيناً أنها تفاوتت أحياناً من حيث الكبر أو القلة ، وبالنسبة لعلم القاضى

وخبرته . فأشار مثلا إلى أن راتب القاضى عبد الرحمن بن سالم بلغ عشرين ديناراً فى الشهر ، وعبد الله بن لهيعة ثلاثين ديناراً شهرياً ، وفى أحيان أخرى منحت السلطات الرسمية القضاة مكافآت عالية ، حيث أعطت القاضى عيسى بن المنكدر جائزة قدرها ألف دينار ، عدا راتبه الشهرى .

وأوضح ابن عبد الحكم حقيقة هامة ، هى أن السلطات الرسمية حرصت على متابعة أحكام القضاة ، وعزل كل من حامت حوله أدنى الشبهات ، أو من ثبتت عليهم تهم معينة ، مهما كان الباعث لها أو الدافع عليها . وبذلك شرح ابن عبد الحكم تفاصيل دقيقة عن سير الإدارة القضائية فى مصر ، وترك وراءه تراثاً نادراً يفيد الباحثين فى تاريخ القضاء المصرى وتطور نظمه والسوابق التى جرى عليها رجاله عبر العصور المتتالية .

قضاة مصر :

جاء اهتمام ابن عبد الحكم بتاريخ قضاة مصر بسبب الصلة الوثيقة التى قامت بين أسرته والادارة القضائية فى البلاد . فكان والد هذا المؤرخ يتولى على عهد القاضى عيسى بن المنكدر (٢١٢هـ / ٨٢٧م) وظيفة « صاحب المسائل » ، ومهمتها التحرى عن الشهود الذين يتقدمون للمحاكم ، والتأكد من سلامة سيرتهم . وأكسبت هذه الوظيفة أسرة المؤرخ ابن عبد الحكم خبرة واسعة بأحوال القضاء

في مصر ، وتطور نظمه وتقاليده ، ودوّنها ابن عبد الحكم فى مؤلفه القيم عن تاريخ مصر . ذلك أن قضاة مصر اهتموا بأحوال الشهود ، وحددوا عدد من يصلح منهم للشهادة، منعاً لتسرب شهادة الزور، ودفعا لما يترتب على ذلك من الإساءة إلى مصالح الناس ، وضياع الحقوق .

وكانت عادة التحرى عن الشهود ، وتحديد عددهم قد بدأت فى مصر قبل أسره ابن عبد الحكم ، وخاصة على عهد القاضى المفضل ابن فضالة (١٧٤هـ/٧٩٠م) ، إذ اتخذ فى مجلسه عشرة رجال للشهادة . ثم اتخذ القاضى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى (١٨٥هـ/ ٨٠١م) الشهود ، ودون أسماءهم فى سجل، وصار لهم وحدهم دون سائر الناس حق الحضور الى المحاكم ، وإبداء الشهادة . وخطا القاضى لهيعة بن عيسى خطوة هامة حين عهد إلى « صاحب المسائل» بأن يجدد السؤال، أو التحرى عن الشهود مرة كل ستة أشهر ، وإبعاد من يتهم بأية تهمة أو تحوم حوله الشبهات . وقام بهذه الوظيفة الخطيرة بعد ذلك والد المؤرخ ابن عبد الحكم ، على عهد القاضى عيسى بن المنكدر ،وأحدث فيها تجديدات هامة، حيث اختار الشهود من سائر الطبقات، دون أن يقصر الشهادة على فئة معينة من الناس . واشتهر هذا القاضى الذى عمل معه عبد الله بن عبد الحكم بحرصه الشديد على سلامة سمعة الشهود ، حتى قيل أنه كان هو نفسه يتنكر فى الليل ويمشى فى الطرقات ليسأل عن الشهود .

وتمتع محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، بالسيرة الطيبة التى حظى بها والده فى ميدان القضاء ، وترك لأخيه المؤرخ ابن عبد الحكم مادة طيبة لتدوين تاريخ قضاة مصر . وتجلت هذه السمعة الطيبة بعد المحنة ، التى تعرضت لها أسرة ابن عبد الحكم ، بسبب أموال ابن الجروى . إذ دأب القضاة على تجنب دعوة محمد بن عبد الله بن عبد الحكم للشهادة ، حتى لا يثار خلاف بينهم وبين السلطات الرسمية فى البلاد ، واكتفوا باحترام كلمة كل من يريد الاستشهاد بأقوال هذا الفقيه التقى . فمن ذلك ما حدث على عهد القاضى الحارث بن مسكين (٢٣٧ هـ / ٨٥١م) ، إذ جاءت إليه عجوز تطلب ميراثا لها ، وسألته إحضار محمد بن عبد الحكم ليشهد لها . فلما تيقن القاضى أنها مظلومة قضى لها بأحقيتها فى الميراث ، ولم يطلب ابن عبد الحكم للحضور للشهادة .

وهكذا وجد المؤرخ ابن عبد الحكم فى علاقة أسرته بالادارة القضائية بمصر سبيلا طيبا ليكتب تاريخ قضاة هذا البلد ، ويكشفه عن جوانب هامة من حياتهم فى هذا الميدان الجليل . فأوضح أن القاضى تمتع بنفوذ كبير وسلطان واسع ، حتى يستطيع أداء مهمته فى طمأنينة ونزاهة كاملة . ولم يحدث البتة أن والياً جمع بين وظيفته فى إدارة البلاد ومهام القضاء ، وذلك حرصاً على سلامة الادارة القضائية ، وضماناً لسير العدالة . وكذلك لم يحدث تصادم بين القاضى والوالى فى

مصر ، إلا فى مسائل قليلة لا تتجاوز حالتين ، كانت كل منها تمس الأحوال الشخصية .

وكانت ولاية القاضى تشمل الأراضى التابعة لسلطان الوالى من الناحية السياسية، كما أن الاختصاص النوعى للقاضى كان غير محدود سواء فى المسائل المدنية أو الأمور الجنائية . ومع هذا ظل القاضى حريصا على استقلاله ، ويتجنب كل الشبهات التى قد تسىء إلى عمله . فروى ابن عبد الحكم أن توبة ابن نمر الحضرمى ، حين ولى القضاء بمصر (١١٥ هـ / ٧٣٣ م) ، دعا امرأته وقال لها : « كيف علمت صحبتى لك ؟ » قالت : جزاك الله من عشير خيرا . » وعندئذ قال لها: انه وقع عليه الاختيار ليكون قاضيا ، وشرح لها خطورة المسئولية التى ألقيت على عاتقه ، ثم حذرها من التدخل فى شئونه ، وهددها بالطلاق قائلا لها: « إن كلمتنى فى خصم أو ذكرتنى به»، وظلت زوجته حريصة كل الحرص على ألا تتدخل فى أمر من أموره ، مهما كان بسيطا ، حتى أنها « كانت لترى أن دواته قد احتاجت إلى الماء فلا تأمر بها أن تمد خوفا من أن يدخل عليه فى يمينه شىء » .

وامتدت هذه المظاهر الخاصة بنزاهة القاضى إلى سائر أصدقائه كذلك ، فروى ابن عبد الحكم عن والده أن القاضى أبا خزيمة (١٥٠ هـ/ ٧٦٧م) دأب فى مجلس القضاء على الاحتفاظ بشخصيته مستقلة استقلالا تاما ، حتى يتساوى كل الخصوم أمامه ، لا فرق بين

صديق له وغير صديق . ومن ذلك أن أحد أصدقاء القاضى دخل عليه ومعه خصم له فى مجلس القضاء ، ولكن هذا القاضى نظر إلى صديقه وخصمه على السواء ، دون أن يخص الصديق بأية تحية مميزة حتى لا يتضرر الخصم .

وتعتبر الأمثلة التى ذكرها ابن عبد الحكم عن احتفاظ القضاة باستقلالهم نماذج تاريخية عن قوة رجال القضاء فى مصر ، ونزاهتهم وشجاعتهم ، وأنهم لم يكونوا فى أى وقت من الأوقات عبيداً لسلطان جائر ، أو يسيرون فى ركب تيار زائف . فذكر ابن عبد الحكم أن القاضى خير بن نعيم (١٣٣هـ/٧٥١م) أمر بحبس جندى اتهم بالاعتداء على أحد الأشخاص . ولما أمر الوالى بإطلاق سراح الجندى بادر القاضى بالاستقالة ، ولم يقبل أية وساطة للعودة إلى منصبه ، احتجاجا على تدخل السلطات التنفيذية فى قدسية القضاء . ومن أروع الأمثلة التى أوضحها ابن عبد الحكم عن قوة شخصية القضاة فى مصر ، ما ذكره عن القـــاضى أبى طاهر عبد الملك الحزمى (١٧٤هـ/٧٩٠م) ، إذ جاء صاحب البريد ، وهو « عين الخليفة وأذنه فى مصر » إلى هذا القاضى ، وانتقد تأخره فى حضور مجلس القضاء . ولكن هذا القاضى غضب من صاحب البريد غضبة شديدة ، وعنفه على تدخله فى شئون القضاء ، وسخر منه قائلا : إن القاضى لا سلطان عليه إلا ضميره ، وأنه من الأصلح لصاحب البريد أن يتفرغ لشئون « دواب البريد » !!

وأشار ابن عبد الحكم إلى حقيقة تاريخية أخرى هامة تتعلق بقضاة مصر ، وهى أنهم كانوا يعقدون مجالسهم فى جامع عمرو بن العاص، ولكن لم يتقيدوا دائما بهذا المكان، إذا اقتضت الضرورة ذلك. فروى هذا المؤرخ أن امرأة حضرت من الريف لمقابلة القاضى غوث ابن سليمان (١٦٧هـ/٧٨٣م) ، وشاهدته وهو فى طريقه إلى المسجد ، فاندفعت نحوه تعرض شكواها ، وعندئذ نزل القاضى عن دابته ، ونظر فى شكواها وقضى لها على الفور .

وعلى هذا النحو من العرض الطريف الحى ، تابع ابن عبد الحكم دراساته عن قضاة مصر ، وترك صورة رائعة عن هؤلاء القضاة ونشاطهم فى خدمة مهمتهم السامية الخطيرة . ولا شك أن هذا العمل اقتضى منه مجهودا شاقا ، وصبرا طويلا ، فضلا عن الحماسة والغيرة المخلصة لتسجيل أخبار هذه الطائفة من قضاة مصر ، والإشادة بمكانتها فى البلاد . إذ تدل النماذج التى اختارها ابن عبد الحكم من هؤلاء القضاة عن منهج فريد قوامه الابتعاد عن سرد الأحداث المتشابهة ، وانتقاء الأحكام التى تصور تطور النظام القضائى فى مصر ، واجتهاد رجال القضاء كذلك فى إصدار الأحكام . ولا أدل على أصالة بحث ابن عبد الحكم فى هذا الميدان من أن منهجه صار نموذجا احتذاه عدد كبير من المؤرخين عبر الأجيال التالية له ، حتى القرن التاسع الهجرى ، أى مدى ستة قرون متواصلة .

الفصل الخامس عشر

الصحابة فى مصر

تاريخ الصحابة .

اختتم المؤرخ ابن عبد الحكم مؤلفه القيم بفصل مطول عن الصحابة الذين وفدوا إلى مصر، وروى عنهم بعض الأحاديث المختارة، وأسهم هذا المؤرخ بذلك فى الحركة العلمية التى اتجهت إلى دراسة تاريخ الصحابة نظراً لارتباط حياتهم برواية الحديث، وهو الموضوع الذى كان يلى القرآن الكريم من حيث أهميته للناس، وتبصرتهم بشئون دينهم ودنياهم. فالصحابة كانوا يعاشرون النبي (ص)، ويسمعون قوله ويشاهدون عمله، ثم يتحدثون بما رأوا وما سمعوا. واشترط العلماء فى الصحابى عدة أوصاف منها، أن يكون شخصا طالت صحبته للرسول الكريم، أو حفظ روايته، أو اشترك معه فى غزوة من الغزوات، أو من رآه ولو لم يجالسه، أو سمعه ولم يره بسبب العمى مثلا.

واختلف أولئك الصحابة فيما بينهم من حيث درجتهم العلمية، حيث كان بعضهم أعلم من بعض . فيروى عن الرسول الكريم قوله: « إن مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،

وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . » واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة صاروا يكونون الطبقة الأولى فى العلم ، هم : عمر وعلى وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة . وجاء بعد هؤلاء الستة الأعلام حوالى عشرون من الطبقة الثانية ، ثم نحو مائة وعشرون من الطبقه الثالثة ، وهكذا .

وكانت التربية الدينية التى تلقاها ابن عبد الحكم سببا فى اهتمامه بتاريخ أولئك الصحابة ، وتسجيل نشاطهم وخدماتهم للدولة الاسلامية الناشئة . والمعروف عن أسرة ابن عبد الحكم أنها كانت على المذهب المالكى ، الذى يعطى الأحاديث النبوية الكريمة الأهمية الكبرى فى التشريع ، واتخاذها الأساس الأول ، والمرجع الأخير لكل فقيه أو عالم فى شئون الدين . وتطلبت هذه الظاهرة بالتالى اهتمام أفراد الأسرة بالصحابة الذين رووا أحاديث الرسول ﷺ ، ومعرفة قدر كل منهم من العلم والإجادة . ولا بد أن هذا الاهتمام أثار عند بنى عبد الحكم اتجاهات عديدة ، استمع إليها ابنهم المؤرخ وهو صغير السن ، وأدرك من متابعته المناقشات التى دارت حول هذه الاتجاهات أن دراسة حياة الصحابة أمر واجب لفهم الأحاديث التى رووها عن الرسول الكريم .

وأول الاتجاهات التى لا بد أن ابن عبد الحكم قد استمع إليها من أفراد أسرته أن عدد الصحابة كان عظيما ، وأنهم بلغوا عند وفاة الرسول

الكريم ما يقرب من ١٠٠٠٤ صحابى ، كلهم سمع منه الأحاديث ورواها عنه . هذا فضلا عن أقوام حدثهم النبى (ص) فى أمور لم يحدث فيها غيرهم ، وأقوام أخرى شاهدت أفعالا للرسول لم يشاهدها غيرهم .

وثانى هذه الاتجاهات التى لابد وأن ابن عبد الحكم قد استمع إليها أيضا ، هو تفاوت مقدرة أولئك الصحابة على رواية الحديث ، وأن بعضهم قد اشتهر بالاكثار من الرواية ، على حين جنح البعض الآخر إلى تحرى الدقة التامة فى كل ما يرويه ، وبالتالى إلى التقليل من رواية الحديث .

وخرج ابن عبد الحكم من دراساته لهذه الاتجاهات العديدة برأى جديد ، هو الاقتصار على تدوين تاريخ الصحابة الذين وفدوا إلى مصر ، وذكر مختارات من أحاديثهم ، مع بيان المناسبات التى وردت فيها تلك الأحاديث . واستطاع هذا المؤرخ الجليل أن يعطى بذلك صورة واضحة المعالم عن نشاط مدرسة الصحابة فى مصر ، ويوضح مكانتها فى خدمة الحضارة العربية الإسلامية .

وقسّم ابن عبد الحكم رجال هذه المدرسة أقساما عديدة ، ورتبها ترتيبا طيبا ، حسب الصحابة الذين شهدوا فتح مصر مثلا ، وأولئك الذين جاءوا إليها بعد الفتح ، ثم الصحابة الذين دخلوا مصر وهم فى طريقهم إلى شمال إفريقيا . واستعرض ابن عبد الحكم تاريخ أولئك الصحابة ونشاطهم على النحو التالى :

أولا : أشار إلى المنازل التى شيدوها فى الفسطاط ، وأقاموا بها ، وكيف أن بعض أولئك الصحابة مال إلى تزيين داره ، والإنفاق عليها عن سعة . فأشار مثلا إلى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد أن فرغ من بناء داره قال للصحابى ، المقداد بن الأسود : كيف ترى بنيان هذا الدار ؟ فقال المقداد : إن كان مال الله فقد أسرفت ، وإن كان من مالك فقد أفسدت . »

وجاءت ملاحظات ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع ذات قيمة كبيرة لتتبع أخبار الصحابة ، وخاصة أولئك الذين غادروا مصر . فقال مثلا : « واختط قيس بن سعد بن عبادة فى قبلة المسجد الجامع ... وكانت فضاء ، فبناها (أى بنى داره) لما ولى البلد (الفسطاط) ، ولاه إياها على بن أبى طالب ، ثم عزله . فكان الناس يقولون ، إنها له ، حتى ذكر له ذلك ، فقال : وأى دار لى بمصر ؟ فذكروها له ، فقال : إنما تلك بنيتها من مال المسلمين لا حق لى فيها » .

ثانياً . روى ابن عبد الحكم أحاديث الصحابة فى مصر ، مبيناً الأحداث التى ارتبطت بها ، أو المناسبات التى تتعلق بها . وغلبت على ابن عبد الحكم روح التأريخ ، حيث أسهب فى ذكر الوقائع التى أحاطت بهذه الأحاديث . ومن ذلك هذا النص الذى دونه ابن عبد الحكم عن عمرو بن العاص ، وجاء فيه ما يلى : « وهو أول أمير أمر على أهل مصر فى الاسلام ، ولهم عنه أكثر من عشرين حديثا ، منها :

أن عمرو بن العاص قال : لما انصرفنا من الخندق (غزوة الخندق، ولم يكن عمرو قد اعتنق الإسلام إذاً ذاك) جمعت نفر من قريش ، بيني وبينهم خاصة ، فقلت لهم : تعلموا والله أني أرى أمر محمد يعلو . . . فهل لكم في رأى قد رأيته؟ . قالوا : وماهو ؟ قلت : نلحق بالنجاشي (ملك الحبشة) ، فنكون عنده حتى ينقضي ما بيننا وبين محمد . . قالوا : قد أصبت.

ثم خرجنا ، فبينما نحن قد دنونا منه (أي ملك الحبشة) ، إذ نظرت إلى عمرو بن أمية قد بعثه رسول الله (ص) إلى النجاشي ... فقلت : أيها الملك إني قد رأيت ببابك رسول محمد ، وهو لنا عدو ، أعطنيه أضرب عنقه ... فقال (النجاشي) : تسألني رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى ، والذي نفس النجاشي بيده ، ويحك يا عمرو ، فأطعني واتبعه . والذي نفسي بيده ليظهرن هو ومن اتبعه على من سواهم ، وعلى من خالفهم .

فخرجت على أصحابي ، وقد حال رأيي عما كان عليه معهم ... فانطلقت تهوى بي راحلتي ... حتى جئنا رسول الله ، ثم تقدمت فبايعت . فقلت : يا رسول الله أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي ، ولم أذكر ما تأخر . فقال الرسول : بايع يا عمرو ، فإن الإسلام يجب ما كان قبله ، وأن الهجرة تجب ما كان قبلها » .

ثالثاً : أشار ابن عبد الحكم إلى الأحاديث التي انفرد بها الصحابة في مصر ، وكذلك تناول ذكر الصحابة الذين حاط الغموض بتاريخهم من حيث صحبتهم للرسول الكريم . وتعتبر هذه الدراسة التي قام بها

ابن عبد الحكم فى ذلك الموضوع عملا فريدا ، أشبه بالتحقيق التاريخى الذى نشاهده فى دراساتنا التاريخية المعاصرة . فقال ابن عبد الحكم فى ذلك مثلا : « ومعاوية بن حديج الكندى ، وهو كان رسول عمرو ابن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية . وقد اختلف فى معاوية بن حديج ، فقال قوم : له صحبة ، واحتجوا فى ذلك بحديث حدثناه عن أبى عبد الله بن عبد الحكم ... وقال آخرون : ليست له صحبة ، واحتجوا بحديث حدثناه يوسف بن عدى ... »

رابعاً : أشار ابن عبد الحكم إلى عدد الأحاديث التى رواها كل صحابى فى مصر ، وخاصة تلك التى رواها أهل مصر أنفسهم . فقال مثلا عن الصحابى عبد الله بن الحرث الزبيدى : وهو آخر صحابى توفى بمصر (٨٦ هـ / ٧٠٥ م) ، ولأهل مصر عنه ، عن النبى (ص) ما يقرب من عشرين حديثاً ، منها : سمعت رسول الله (ص) يقول : إن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ... ومنها حديث عن عبد الله بن الحرث . قال : ما رأيت أحداً أكثر تبسما من رسول الله (ص) .

وهكذا سجل ابن عبد الحكم لنفسه قصب السبق فى ميدان الأبحاث المبتكرة ، وقدم بدراساته عن تاريخ الصحابة فى مصر أجل الخدمات للعاملين فى ميدان الحضارة العربية الإسلامية ، ومعرفة سيرة العلماء الذين أسهموا فى بنائها ورفع قواعدها .

الفصل السادس عشر

الناقلون عن ابن عبد الحكم

العمر الثاني :

عاش المؤرخ ابن عبد الحكم عمره الثانى ، الأطول أمداً والأعلى ذكرا ، فى كتابه « فتوح مصر والمغرب » . إذ قدر لهذا الكتاب القيم ، الذى انعكست فيه سيرة هذا المؤرخ الجليل ، أن ينجو من الضياع وسط الأزمة التى تعرضت لها أسرة ابن عبد الحكم ، ثم تناقله الرواة خالفاً عن سالف حتى صار ينبوعا دافقاً غزيرا ، يستمد منه أجيال المؤرخين ، الباحثين فى تاريخ وطنهم الأصغر مصر ، أو وطنهم العربى الكبير ، ما ينير لهم الطريق ، ويكشف عن الدور العظيم الذى أسهمت به أوطانهم فى سبيل خدمة الدين الاسلامى والحضارة العربية .

وأول من نقل كتاب ابن عبد الحكم هو ابن قديد ، أحد مشاهير المحدثين والرواة ، الذين عاصروا هذا المؤرخ ، وأتاح لهذا العمل القيم أن يجد طريقة إلى الباحثين والعلماء . وترجح الأبحاث الحديثة

عن كتاب فتوح مصر [١] ، أن ابن قديد لم يكن تلميذا لا بن عبدالحكم، كما أنه لم يثبت عنه أنه قد نقل عنه رواية شفوية . وفى ذلك يقول الأستاذ عبد المنعم عامر فى تقديم نشره لكتاب « فتوح مصر » السالف الذكر : والمعقول فى رأيى أن يكون بعض مريدى ابن عبد الحكم الذين عاشوا فى جيله قد حازوا مخطوطة ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب وأخبارها . وظلت هذه المخطوطة محفوظة عندهم بعد مأساة أسرة ابن عبد الحكم حتى حصل ابن قديد على نسخة منها بعد وفاة المؤلف ، أو أنه ربما كانت النسخة التى حصل عليها ابن قديد من عمل واحد من تلاميذ ابن عبد الحكم ، ثم تداول الرواة نقل هذه النسخة عن ابن قديد جيلا بعد جيل، وصار أثرها واضحاً كل الوضوح فى أعمال المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم [٢] .

وظل المؤرخون من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، إلى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ينقلون عن ابن عبد الحكم ، متخذين من دراساته أساساً لأبحاثهم، وطريقا يسلكونه نحو تحقيق أهدافهم العلمية . فاعتمد على ابن عبد الحكم مؤرخو مصر وخططها ، وكذلك مؤرخو بلاد المغرب ، وغيرهم من الباحثين فى التاريخ الاسلامى العام . وشهد كل أولئك المؤرخين بنزاهة هذا الأستاذ الأول ، ولمسوا صدق رواياته وإصالتها أيضاً .

---

(١) قام ببحث فى هذا الموضوع الأستاذ عبد المنعم عامر ، عند تحقيقه لكتاب « فتوح مصر والمغرب » لابن عبد الحكم — القسم التاريخى — (١٩٦١) .

(٢) انظر : عبد المنعم عامر ، فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ، تقديم ، ص ، (ش) .

الكندى :

وكان أول من انتفع بكتاب « فتوح مصر » لابن عبد الحكم ، هو المؤرخ المصرى أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، وقد ولد هذا المؤرخ سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٧ م ، ثم شب وترعرع محباً لتاريخ وطنه . وقد وجد فى ابن قديد المرشد إلى مخطوطة ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ، وعرف بالتالى الكثير عن أحوال وطنه وتطوراته .

على أن أهم كتابين للكندى ، وصلا إلينا ، ويتضح فى كل منهما أثر ابن عبد الحكم تمام الوضوح ، هما « تسمية ولاة مصر » وكتاب « قضاة مصر » . وعالج الكندى فى القسم الأول الولاة الذين حكموا مصر منذ الفتح الاسلامى إلى سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦ م ، أى قبيل وفاته بخمس عشرة سنة . واتبع فى عمله الترتيب الزمنى ، فذكر اسم الوالى ، وسنة تعيينه ، وتاريخ دخوله مصر ، ثم استعرض أحوال مصر على عهد هذا الوالى ، وأهم الأحداث التى وقعت فى ولايته . وبعبارة أخرى جاء هذا الكتاب تكملة لما وضعه ابن عبد الحكم عن عمرو بن العاص ، والى مصر الأول ، واستقصاء للتنظيم الإدارى للبلاد .

وقد اتبع الكندى فى كتابه « قضاة مصر » نفس المنهج الذى سار عليه فى كتابه الولاة . كما يظهر فيه أيضاً النقل الواضح عن كتاب ابن عبد الحكم فى القسم الذى وضعه عن قضاة مصر . ويلاحظ أن

المؤرخ الكندى وقف أيضاً فى روايته عن قضاة مصر ، حيثما وقف ابن عبد الحكم ، أى عند ولاية القاضى بكار بن قتيبة لقضاء مصر سنة ٢٤٦ هـ . وكان للكندى فضل الإضافة والإفاضة فى بعض الأحيان ، وذكر نماذج عن أحكام أولئك القضاة .

وبذلك أسهم الكندى فى إقامة الصرح الذى وضع ابن عبد الحكم أساسه عن تاريخ مصر ، وبيان دورها الخالد فى نشر الاسلام وحمل لواء العروبة إلى ما جاورها من بلاد. فإذا كان ابن عبد الحكم قد تحدث عن أن مصر صارت قاعدة للفتح العربى لبلاد المغرب ، فإن الكندى شرح الادارة العربية لكل من هذين القطرين ، وكيف أنها صارت المحور الذى دارت عليه شئون الشطر الغربى من الدولة العربية الفتية. وقد توفى الكندى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، أى بعد ثلاثة وتسعين عاما من وفاة ابن عبد الحكم ، وهى فترة تربى فيها جيل عامل من أبناء البلاد ، حمل مشعل النهضة التاريخية فيها ، وربط ماضى وطنه الخالد بحاضره المشرق فى ظل العروبة والاسلام .

القضاعى :

وهو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ، ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م ،

أى أنه ربط جهاد ابن عبد الحكم العلمى بالقرن الخامس الهجرى ، الذى يمثل نقطة انطلاقة كبرى فى تاريخ « الخطط المصرية » . واشتهر القضاعى بسعة علمه وبإقباله على الاشتغال بالتأليف فى التـــاريخ ، وخاصة ما يتعلق بالخطط . فوضع كتابا اسمه « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ، وقد فقد هذا الكتاب القيم . ولكن بقيت غالبية محتوياته عند من جاء بعده من المؤرخين والذين نقلوا عنه نقلا كاملا ، ودون تعديل فى كثير من الأحيان . والذى جعل لكتاب القضاعى أهمية عظمى هو أنه أتم ما بدأه ابن عبد الحكم ، وما قام به الكندى وابن زولاق أيضاً ، وسجل اسمه فى ميدان مؤرخى الخطط . وترتب على ذلك أن بعض المؤرخين ، ممن نقل عن القضاعى اعتبروه خطأ أول من كتب فى خطط مصر ، نتيجة للجهود التى بذلها فى تلك السبيل . ويقال إن المقريزى نقل كتاب القضاعى « خطط مصر » ، مما حفظ مادة هذا الكتاب بعد أن ضاع النص الأصلى .

البكرى :

وشاهد القرن الخامس الهجرى ، الذى تبوأ فيه القضاعى قصب السبق فى ميدان الخطط ، ظهور علماء أفاضل من الأقطار المجاورة لمصر واستفادوا مما كتبه ابن عبد الحكم عن الخطط ، وكذلك عن صلة بلادهم بمصر . ومن هؤلاء العلماء أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، وهو من عرب أسبانيا ، الذين كثر وفودهم على مصر منذ

القرن الثالث الهجرى ، أى على أيام ابن عبد الحكم نفسه ، وتلقوا العلم على أفراد بيت هذا المؤرخ الجليل . وبذلك وصلت كتب أبناء بيت ابن عبد الحكم إلى بلاد الأندلس والمغرب ، ومن بينها كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس» ، وصارت الأساس الذى إعتمد عليه أهل تلك البلاد أيضاً فى تدوين تاريخ هـذا الشطر من الوطن الكبير ، وتتبع تطوراته وأحداثه .

وتتضح إفادة البكرى من ابن عبد الحكم فى الكتاب الذى وضعه باسم « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، وهو حلقة فى سلسلة من الكتب الجغرافية التى عرفت باسم «المسالك والممالك» ، والتى كتبت على طريقة أدلة المسافرين ، وشرح الطرق التى يسلكونها ، وبيان المدن التى يمرون عليها . وكان البكرى حسن الأسلوب ، كما كان شاعراً وأديباً ، مما جعل كتابه سهلا واضحاً، وذكر فيه المدن والقرى من مصر إلى برقة ، وبـيّن الطرق والواحات من طرابلس إلى قابس ، ومنها إلى القيروان . ثم أسهب فى الكلام على إفريقية (تونس) وبلادها وحدودها وغرائبها ،كما ذكر مدينة تلمسان وماوراءها إلى المغرب . وتحدث أيضاً عن بلاد السودان ومدنها المشهورة ، واتصال بعضها ببعض والمسافات بينها وسيرة أهلها ، ونبذة عن تاريخ البربر .

وحرص البكرى على أن يذكر المعلومات التاريخية التى تتصل بالمكان الذى يصفه ، وأسند شطراً كبيراً من هذه المعلومات إلى

الليث بن سعد، المحدث المصرى ، وهو من شيوخ رواة ابن عبد الحكم. وفى مواضع أخرى تتفق أخبار البكرى اتفاقا يكاد يكون حرفاً بحرف مع ما رواه ابن عبد الحكم ، مما يدل على أن البكرى اطلع على كتاب مؤرخ مصر الأول ، واستفاد منه فائدة عظمى فيما يتعلق بتاريخ المغرب والأندلس والسودان ، وهو أمر هام يوضح بالتالى تاريخ انتشار العروبة فى تلك الأقطار ، وكيف كانت مصر قاعدة هـذه الحركات الهامة .

وتجلت إفادة البكرى أيضا مما كتبه ابن عبد الحكم فى تاريخ الخطط عندما اتخذ منهجه نبراسا له فيما دونه عن إفريقية (تونس) وتطور عاصمتها القيروان . فذكر البكرى حدود إفريقية والأحاديث النبوية المتعلقة بها ، وجانبا من أخبار القيروان ومسجدها ، على نمط ما قام به ابن عبد الحكم فى ذكر خطط الفسطاط . ولذلك يعتبر مجهود البكرى امتدادا لرسالة ابن عبد الحكم فى شرح التطور العمرانى فى إفريقية وبلاد السودان ، ودلالة على الأثر الواسع المدى الذى تركته أعمال ابن عبد الحكم فيما جاور مصر من بلاد. وبعبارة أخرى نهض البكرى بدور هام فى ربط مجهودات ابن عبد الحكم بأعمال مؤرخى المغرب، وذلك على نحو ما قام به القضاعى من ربط لخطط أستاذه الأول بمن جاء بعده من مؤرخين .

ابن دقماق :

تابع المؤرخون فى مصر ، منذ القرن الخامس الهجرى إلى أواخر القرن الثامن ، السير على نهج ابن عبد الحكم فى تدوين «تاريخ الخطط» ، وتسجيل تطورها طوال المرحلة السالفة الذكر . غير أن معظم أولئك المؤرخين قصر نشاطه العلمى على وصف خطط « القاهرة المعزية » ، التى أسسها الفاطميون ، لأن هذه العاصمة شهدت نموا مضطردا سريعا ، جذب إليها الأنظار والدراسات .

ولكن ما كاد القرن الثامن الهجرى يقترب من نهايته حتى ظهر مؤرخ جليل هو ابن دقماق ، الذى عمد إلى ربط مجهودات أسلافه من المؤرخين بأعمال أستاذهم الأكبر ، ابن عبد الحكم . وقد ولد هذا المؤرخ بالقاهرة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ، وشب وترعرع فيها ، مما أتاح له الوقوف على تاريخ خططها . غير أن ابن دقماق اتجه بنظره إلى الفسطاط كذلك ، التى أرخ لها ابن عبد الحكم ، لأنها كانت قائمة إذ ذاك إلى جانب القاهرة المعزية ، وشهدت بدورها من التطورات ما جعل إعادة تدوين تاريخ خططها أمراً واجبا .

واستهل ابن دقماق نشاطه بدراسة الكتب التى دونت تاريخ خطط الفسطاط ، ومن بينها كتاب ابن عبد الحكم ، وخطط القاهرة الفاطمية كذلك . وكانت معظم الكتب التى تناولت خطط القاهرة قد أخذت

تندثر ، مما جعل لمجهودات ابن دقماق أثر عظيم فى الاحتفاظ بالكثير من المعلومات التى وردت فى بطون الكتب السالفة. ومن أمثلة الكتب التى فقدت ، والتى استفاد منها ابن دقماق كتاب « الروضة البهية الزاهرة فى خطط القاهرة » لمؤلفه ابن عبد الظاهر ، من مؤرخى القرن السابع الهجرى .

المقريزى :

شهد القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى طائفة كبيرة من مشاهير المؤرخين ، حملوا راية التدوين فى التاريخ المصرى ، بعد أن أسلمها لهم ابن عبد الحكم ، على يد أسلافهم من مؤرخى القرون السابقة للقرن التاسع . وأول مؤرخى هذه الطائفة ، العاملين على هدى أستاذهم الأكبر ، ابن عبد الحكم ، هو المقريزى ، الذى ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م . وعندما شب هذا العالم وترعرع اتجه إلى دراسة العلوم الدينية ، كما أظهر ميلا شديدا إلى دراسة التاريخ ووضع فيه مؤلفات قيمة .

وتقف على رأس هذه القائمة الحافلة من مؤلفات المقريزى ، الكتب التى وضعها فى تاريخ مصر ، والتى أسهم بها فى إعلاء الصرح الذى وضع أساسه ابن عبد الحكم. وعالج المقريزى فى تلك الكتب الفنون التى وضع لبنتها الأولى ابن عبد الحكم ، حيث شرح الدول التى قامت بمصر ، ومجتمعاتها ونظمها . ومن أهم أبحاثه فى هذا الميدان مايلى :

١ — « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وهو حلقة في سلسلة كتب الخطط في تاريخ مصر .

٢ — « السلوك في دول الملوك » ، وهو تاريخ دول المماليك في مصر إلى قبيل وفاة المقريزي .

٣ — « المقفى ، أو التاريخ الكبير » ، وهو تاريخ الأمراء الذين حكموا مصر وعاشوا فيها .

٤ — « درر العقود المفيدة ، في تراجم الأعيان المفيدة » .

٥ — « اتعاظ الحنفا ، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ، وهو تاريخ الدولة الفاطمية منذ نشأتها في المغرب إلى مصر المعز لدين الله الفاطمي .

٦ — « البيان والإعراب ، عما بمصر من الأعراب » .

٧ — « عقد جواهر الأسفاط ، في ملوك مصر والفسطاط » .

ويعتبر الكتاب الأول من هذه السلسلة المتعلقة بتاريخ مصر الأثر الذي يتضح فيه نجاح ابن عبد الحكم في توجيه مواطنيه إلى الاهتمام بتاريخ وطنهم ، ومدى خلود المنهاج الذي رسمه لهم أيضاً في تلك السبيل . فإذا كان ابن عبد الحكم هو مبتكر تاريخ الخطط ، فإن المقريزي يعتبر خير تلميذ لهذا المعلم الأول ، إذ أحب وطنه كما أحبه ابن عبد الحكم ، كما اشترك معه في تسجيل أخبار مسقط رأسه ومرتع صباه. فقال المقريزي : « وكانت مصر مسقط رأسي ، وملعب أترابي ، ومجمع

ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لا زلت مذ شدوت العلم ، وأتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها . »

وفى نفس الوقت أشار المقريزى فى سياق كتابه إلى مؤرخى الخطط الذين سبقوه فى هذا الموضوع ، بحيث لا ينقل رواية إلا وأسندها إلى مصدرها . فرجع فى أخبار فتوح مصر وتاريخها قبل الإسلام إلى ابن عبد الحكم ، وفى أخبار الفسطاط الأولى إلى الكندى وابن زولاق ، وفى عصر الدولة الفاطمية ، رجع إلى ابن زولاق والجوانى. وأما ماجاء بعد ذلك من أخبار مصر والقاهرة فإنه رجع فيه إلى كثير من العلماء الذين قصروا جهودهم على ذكر خطط القاهرة فقط ، مثل ابن عبد الظاهر وابن المتوج ، المتوفى سنة ٧٣٠ هـ . وهكذا أتم المقريزى السلسلة التى بدأها ابن عبد الحكم بكتابه فتوح مصر ، وما ابتكر فيه من فن تدوين الخطط .

ويلاحظ الدارس لخطط المقريزى تأثره العميق بأسلوب ابن عبد الحكم فى عرض ذلك الفن من التاريخ ، كما خطا بهذا الفن أيضا خطوات واسعة إلى الأمام . فإذا كان ابن عبد الحكم قد تعرض فى دراسته لخطط الفسطاط إلى ذكر الأحداث التاريخية أو الوقائع التى

ترتبط بتلك الخطة وأصحابها النازلين بها، فإن المقريزى نهج على هذا المنوال. فإذا اقترن ذكر أمير أو شخص أو حادثة بخطة من خطط القاهرة تتبع المقريزى أصولها ، بحيث ينقل القارئ فى أسلوب طريف ، وعرض شيق ، من الخطة إلى ما اقترن بها ، مستهدفا من ذلك إعطاء أوفى صورة وأوضحها عن العاصمة التى اعتز بها ، وآمن بعظمتها ، ورسالتها فى خدمة الوطن العربى الكبير .

ولم يقف تأثير ابن عبد الحكم على المقريزى عند تدوين الخطط، وإنما عمد الأخير إلى إكمال كتابه « المواعظ والاعتبار » بسلسلة أخرى من المؤلفات السالف ذكرها ، ليفصّل فيها ما جاء مقتضبا من تاريخ مصر عند عرضه للخطط . ذلك أن ابن عبد الحكم جمع فى كتابه فتوح مصر بين ذكر خططها وتاريخ حكامها وإدارتها كذلك ، واضعا اللبنة الأولى فى صرح تاريخ هذا البلد الأمين فى ظل العروبة والإسلام . وعلى هذا النحو وجد المقريزى أن مؤلفه «المواعظ والاعتبار» بحاجة إلى كتب أخرى تشرح تطور وطنه فى ظل هذا الميدان الجديد ، وتكشف عن الدور الجليل الذى قامت به فى سبيل بناء الحضارة العربية. فأتبع المقريزي كتاب الخطط بمؤلف في تاريخ الفسطاط ، سماه عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط . وهذا الكتاب عبارة عن تاريخ لمصر فى عهد الولاة ، الذين تولوا إدارتها بعد الفتح العربى . ثم أتبع المقريزى ذلك بكتاب في دولة الفاطميين بمصر ، واسمه اتعاظ

الحنفا بأخبار الخلفا[1]، «حتى إذا فرغ منه فكر فى تأليف كتاب يكون تاريخا للأيوبيين والمماليك (٢) ليتم سلسلة مؤلفاته فى التاريخ المصرى الوسيط، من الفتح العربى إلى زمنه، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك [3]، وهو الكتاب الذى غدا أساسا رئيسيا لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية الأولى والثانية».

وبذلك يمكن القول أن منهج ابن عبد الحكم فى كتابه التاريخ قد ازدهر وأثمر على أيدى المقريزى. فكانت مؤلفات الأخير تاجا يكلل الدراسات القيمة التى أسهم بها أبناء الوطن المصرى، منذ ابن عبد الحكم إلى عصر المقريزى، وبعبارة أخرى أكمل المقريزى سلسلة الدراسات المتعلقة بتاريخ مصر فى ظل العروبة والإسلام منذ القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى، إلى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى. وصار أبناء هذا الوطن اليوم يجدون صورة مترابطة واضحة المعالم عن جهاد بلادهم فى الاحتفاظ براية العروبة عالية، وحمايتها من أعدائها، وتبصرتها بما يعترضها من متاعب، وكذلك ترسم للأمة العربية سبل الازدهار والتقدم والفلاح.

(١) نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذا الكتاب سنة ١٩٤٩.

(٢) انظر الدكتور مصطفى زيادة: المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (١٩٤٩).

(٣) نشر الدكتور مصطفى زيادة هذا الكتاب، وبذل فيه جهداً مشكوراً ما زال ينبوعاً يهدى الباحثين فى تاريخ مصر العصور الوسطى.

ابن حجر :

وإذا كان المقريزى قد أكمل الصرح الذى وضع قواعده ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر ، فإن معاصراً وصديقاً حميماً له وهو أحمد بن حجر شاركه هذا العمل المجيد ، وسجل اسمه أيضاً بمداد من الفخار فى سبيل حمل الرسالة التى تركها مؤرخ مصر الأول . وقد ولد ابن حجر بمصر القديمة سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٣ م ، ونشأ فى وسط دينى أشبه بالوسط الذى شب فيه ابن عبد الحكم . فكما كان والد ابن عبد الحكم فقيها ، وعالما من كبار علماء الدين ، فإن والد ابن حجر كان أيضاً من كبار المحدثين ، الراغبين فى تنشئة أبنائهم تنشئة دينية خالصة [١] .

وعند ما شب ابن حجر عن الطوق ، أظهر ميلا إلى دراسة التاريخ ، وصار على علم واسع به ، فضلا عن تفقهه فى علوم الدين . ولذا اتجه إلى وضع المؤلفات فى تاريخ مصر ، إلى جانب الكتب التى دونها فى الحديث والتراجم والفقه . وساقته دراساته التاريخية إلى الوقوف على كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب » ،

---

(١) انظر تفصيل سيرة هذا العالم الجليل فى مقدمة الجزء الأول من كتابه « رفع الإصر » ، حيث شرح الدكتور حامد عبد الحميد فى هذه المقدمة حياة ابن حجر ونشأته والمناصب التى تقلدها وجهوده فى خدمة الحياة الدينية والعلمية فى مصر .

واستفاد من الأبواب المبتكرة التي احتواها هذا الكتاب ، وعمد بدوره إلى السير على نهجها.

على أن أهم كتاب لابن حجر ، ويعتبر مساهمة مباشرة منه في رفع قواعد الصرح الذي وضعه ابن عبد الحكم هو كتاب « رفع الأصر عن قضاة مصر »[1]. فمنذ وضع ابن عبد الحكم عرضا لتاريخ قضاة مصر والتأليف يسير سيراً منتظما في توضيح جوانب هذا النظام الهام في حياة البلاد ، وذلك على نحو ما قام به الكندي ، الذي جاء تدوينه لقضاة مصر صورة مطابقة تماما لما قام به ابن عبد الحكم ، حتى أنه انتهى في هذا العرض التاريخي عند نفس السنة التي وقف عندها ابن عبد الحكم . وإذا كان ابن حجر قد اعتمد في وضع مؤلفه السالف الذكر ، على ما كتبه الكندي ، وابن زولاق فإنه بالتالي قد استفاد مما وضعه ابن عبد الحكم ، وأكمل رسالته في خدمة تاريخ القضاء في مصر . وفضلا عن ذلك فإن ابن حجر استفاد من تاريخ ابن ميسر ، وتاريخ المقريزي ، وهو الأمر الذي أعطى كتابه « رفع الأصر » قيمة تاريخية عظمى .

(١) نشر هذا المؤلف القيم الدكتور حامد عبد المجيد ، وظهر منه إلى الآن جزءان وهما يحتويان على تحقيق دقيق ، وشروح ضافية تفيد الباحث في تطور النظام القضائي بمصر ، وكذلك في أحوالها الاجتماعية في العصور الوسطى . وصدر القسم الأول سنة ١٩٥٧ ، والقسم الثاني بسنة ١٩٦١ .

أبو المحاسن :

ظلت راية التاريخ المصرى تنتقل من يد ابن عبد الحكم إلى خلفائه من مؤرخى مصر، حتى استقرت فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى فى يد أبى المحاسن، الذى نال عن جدارة لقب زعيم المؤرخين فى هذا القرن . وقد ولد هذا المؤرخ بالقاهرة سنة ٨١٣ هـ / ١٤١١ م، ونشأ محباً للتاريخ والعلوم الدينية، شأنه فى ذلك شأن أقرانه من كبار العلماء المسلمين .

ويشبه أبو المحاسن أستاذه الأول ابن عبد الحكم، فى الاهتمام بتاريخ وطنه مصر، وتكريس جهوده ووقته لتسجيل تطور هذا البلد الأمين . وقد وضع أبو المحاسن ما يقرب من إثنى عشر كتاباً، بقى منها سبعة، أشهرها كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ». ويعتبر هذا الكتاب لبنة فى صرح التاريخ المصرى الذى وضع ابن عبد الحكم أساسه المتين . إذ ترجم أبو المحاسن فى كتابه لولاة مصر وسلاطينها وحكامها، كأنما يستلهم روح ابن عبد الحكم، الذى وقف كتابه على والى مصر الأول، وهو عمرو بن العاص .

ويتضح من استعراض كتاب النجوم الزاهرة، مدى استفادة أبى المحاسن من المنهج الذى سار عليه ابن عبد الحكم فى تدون تاريخ مصر . فقد استهل أبو المحاسن كتابه بذكر فضائل مصر، على نحو ما فعله ابن عبد الحكم، ونقل عنه الكثير، ثم أضاف إلى ما نقل

ثمار دراساته وأبحاثه ، حتى جاء الفصل الخاص بفضائل مصر ، فضلا ممتعاً ومفيدا. وإذا كان ابن عبدالحكم قد اهتم مثلا بذكر منسوب مياه النيل ، وبيان أهميته بالنسبة للرى فى مصر ، فإن أبا المحاسن حرص على إكمال ما بدأه استاذه ، وذكر إحصاء عن منسوب النيل فى كل عام من الأعوام التى سجل فيه تاريخ مصر وأحداثها .

ويبدو أن أبا المحاسن قد استفاد أيضاً من أسلوب ابن عبد الحكم وطريقته فى عرض المادة التاريخية . إذ يمتاز العرض التاريخى لمادة النجوم الزاهرة ، بحسن الترتيب ، الذى اتصف به كتاب « فتوح مصر » لابن عبد الحكم . فالباحث فى تاريخ مصر يجد فى مؤلف أبى المحاسن حقائق هامة ، موضحة توضيحاً علميا سليما ، ومدعمة بالأنسانيد القوية ، على نحو ما يطالعه فى مؤلف ابن عبد الحكم . وهكذا يستطيع القارىء أن ينتقل من كتاب ابن عبد الحكم إلى كتاب أبى المحاسن ، دون أن يشعر بفارق جوهرى ، ويتابع دراساته فى تاريخ مصر ، منذ الفتح العربى إلى القرن الخامس الهجرى ، فى سلسلة متصلة الحلقات ، واضحة المعالم والاتجاهات .

السيوطى :

ولد جلال الدين عبد الرحمن السيوطى بالقاهرة سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م ، وشب فى بيت دين وعلم . فاستطاع السيوطى أن يختم القرآن وهو دون الثامنة ، كما أجاد العلوم الدينية ، كالتفسير والحديث والفقه ، ووصل إلى درجة عالية فى النحو والمعانى والبيان . وقيل إنه

درس على ستمائة شخص من شيوخ عصره ، بمختلف البلاد ، وأنه تنقل من أجل ذلك بين مراكز التعليم بمصر ، فى دمياط والاسكندرية والمحلة الكبرى والفيوم، ونال إجازات كثيرة فى المواضيع التى درسها. ثم إنه باشر تدريس اللغة العربية وكذلك الفقه ، كما تصدى للإفتاء وإملاء الحديث .

وأخيراً انقطع السيوطى للتأليف ، ووضع كتباً عديدة أشهرها كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » . ويصور هـــذا الكتاب نواحى عدة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والأدبى ، وكذلك بعض خواص البلاد المصرية ، وعجائبها وآثارها . ولخص السيوطى معظم أخباره عن أسلافه من أجيال المؤرخين ، ويبتدىء بابن عبد الحكم ، ومن نقل عنه مثل الكندى ، ومن تبعهم بإحسان . وفضلا عن ذلك فإن السيوطى عمد إلى الإفاضة فى بعض المواضيع التى تناولها ابن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر » . ومن ذلك أن السيوطى تناول بالذكر فى كتابه من دخل مصر من الصحابة والتابعين، ثم ذكر أمراءها وفقهاءها ، كما تناول ذكر نيلها وبعض مدنها ، ونواح من خطط مصر . وبعبارة أخرى فإن السيوطى يعتبر الحلقة الكبرى التى ربطت ابن عبد الحكم بالقرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، حيث توفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م .

ابن إياس :

ويمثل ابن إياس مرحلة هامة من مراحل التاريخ المصرى ، كما تعتبر كتاباته أيضاً نقطة تحول فى ميدان التاريخ الذى بدأه ابن عبد الحكم. ذلك أن ابن إياس عاصر الغزو العثمانى لمصر ، وهو الأمر الذى جاء نكبة على العالم العربى ، وربط الأمة العربية لمدة ليست بالقصيرة بالتيارات الشاذة التى امتلأ بها عهد الدولة العثمانية . إذ قدر لهذا المؤرخ أن يعيش من ٨٥٢ — ٩٣٠هـ/١٤٤٨ — ١٥٢٣ م ، أى أنه عاصر آخر أيام دولة المماليك ، ومطالع السيطرة العثمانية على البلاد العربية . وهو أمر جعل لكتبه التاريخية مكانة فريدة فى تصوير هذه المرحلة الانتقالية الخطيرة فى حياة الأمة العربية .

وأهم كتب ابن إياس ، التى تجلى فيها ارتباطه بالصرح الذى وضع أساسه ابن عبد الحكم هو « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، حيث استعرض فيه تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى . ثم وضع ابن إياس كتاباً آخر يعتبر استمراراً لرسالة ابن عبد الحكم فى تبصرة مواطنيه بأمجادهم الأولى ، وتوجيه أنظارهم إلى ماضيهم المشرق فى بناء الحضارة العالمية . ويعرف هذا الكتاب باسم « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ، واستهدف من تأليفه ، كما قال ابن إياس نفسه فى مقدمته : بيان عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء من

الطلسمات المحكمة ، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء ، وما صنعوا من الأبنية المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد ... وأخبار النيل والأهرام ، وعجائب البلاد التى من أعمال مصر وخططها وأقطارها ».

وفرغ ابن إياس من تأليف هذا الكتاب السالف الذكر سنة ١٥١٨م ، أى بعد سيطرة العثمانيين على العالم العربى بعام واحد .

الأثر الخالد :

وهكذا حمل الناقلون عن ابن عبد الحكم إلى الأجيال المتعاقبة رسالة مصر الخالدة فى بناء المجد العربى وحماية صرحه الشامخ . ولذا ما أن وطئت أقدام العثمانيين أرض البلاد العربية حتى طالعتهم أمة راسخة الأوتاد لا يمكن النيل منها أو فرض نيرهم عليها . ثم أن أبناء هذه الأمة وجدوا فى تراث المؤرخين الفطاحل السالف ذكرهم نماذج ترشدهم إلى طريق الحرية ، والسير الموفق فى سبيل استرداد مجدهم وسلطانهم .

وعلى جيل المؤرخين اليوم الأخذ بنصيبهم فى حركة البناء العربى المعاصر ، سائرين على هدى أستاذهم الأول - ابن عبد الحكم - عاملين على رفع قواعد الصرح الذى وضع أسسه فى كتابه « فتوح مصر والمغرب والأندلس » ، إذ يناديهم هذا المؤرخ الكبير من صفحات كتابه الخالد :

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار

الصحيفة

